فصول من العقيدة

الدكتور عبد الرسول الغفاري

تقديم السيد محمد حسين فضل الله

دار المحجة البيضاء

دار ومكتبة الرسول الأكرم (ص)

فصول من العقيدة

الدكتور عبد الرسول الغفّاري

فصول من العقيدة

تقديم السيّد محمّد حسين فضل الله

دار المحجّة البيضاء دار الرسول الأكرم (ص)

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م

دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع — بيروت - لبنان ص. ب: ١٤/٥٤٧٩

تقديم

الحمد لله والسلام على عباده الذين اصطفى .

وبعد :

ربما كان من مشاكل التربية الإسلامية في الحوزات العلمية الدينية ، مشكلة فقدان الكتاب العقيدي الذي يركز القاعدة الفكرية للعقيدة على الأُسس العلمية الحديثة التي تستجيب في طروحاتها ونظرياتها للقلق الفكري الذي يعيشه الإنسان المسلم في كثير من المفاهيم الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التي يطرحها الإنسان المعاصر عبر النظريات التي يتكامل فيها الخط العقيدي مع الخط الحياتي في حركة الإنسان في الواقع . وحركة الحياة في الإنسان .

ولهذا فإن الطالب الحوزوي الذي يتخرج من الحوزة ، لا يجد في وعيه العلمي الأمتداد الثقافي الذي يجعله في مستوى التحدي في ساحة الصراع الفكري بحيث يستطيع الاجابة على علامات الاستفهام الموجهة إليه بالذهنية الإسلامية المنفتحة على ذهنية العصر في مفرداتها وأساليبها ومناهجها لأن المنهج الدراسي لا يقدّم له الكتاب الملائم الذي يتناسب مع حاجته المعاصرة في الفكر والدعوة والحركة ، الأمر الذي يجعل الكثير من خريجي الحوزات لا يملكون الثقافة الإسلامية العقديدية التي يدفعون بها الشبهات والاشكالات الموجّهة للإسلام عقيدةً ونظاماً .

وإذا كان هناك الكثير من العلماء والمفكرين من الخريجين، ممن يملكون الثقافة الواسعة في الفلسفة وعلم الكلام والنفس والاجتماع ومقارنة الأفكار والأديان، فإن ذلك راجعٌ إلى الثقافة الخاصة التي يملكها هذا العالم أو ذاك من خلال دراساته الخاصّة. وجهده الذاتي.

إن المشكلة هي أن الكتاب العقيدي ـ الكلامي ـ في الحوزة، يمثل المرحلة الفكرية التي ترقى إلى ما يقارب الألف سنة، بحيث يستجيب للحالة الذهنية الملائمة والمضادة في ذلك العصر، مما يؤدّي إلى أن يختزن الطالب في ذهنه، ذهنية المفاهيم السائدة في ذلك العصر فيعيش الغربة الفكرية عن القلق المعرفي في تطلعاته وتنوعاته ومسالكه ومناهجه في عصره، فيكون حاله حال الذي يتحدث مع الناس بلغةٍ غير لغتهم لأن الذهنية لغة، كما هو الأسلوب لغة، وليست المفردات اللغوية ـ وحدها ـ هي التي تمثل العنصر الحيوي للغة، باعتبار أنها وسيلة التفاهم الذي يدخل فيه الفكر والأسلوب والجوّ والمفردات.

لقد استطاع المفكرون الروّاد في حركة الفكر الإسلامي المعاصر أن يجدّدوا في الفكر والمنهج والأسلوب ولكنهم لم يتحوّلوا حتى الآن إلى تيار فكري يفرض نفسه على الذهنية الحوزوية العلمية ولكننا نلاحظ بعض الحركة في الخيوط الجديدة التي بدأت تفرض نفسها على الواقع الثقافي من خلال عملية التلاقح الفكري والمنهجي في الثقافة العامة، مما يبعث الأمل الكبير في التقدم في هذا المجال في سبيل الوصول إلى النتائج الكبرى في الاتجاه الحركي في عملية الدعوة والتبليغ.

إن ما نريد إثارته ـ في هذا الحديث ـ هو الحاجة إلى تجدد المفردات الفكرية في منهج الاستدلال على القضايا العقيدية بحيث تلتقي مع حركة التقدم الفكري للإنسان المعاصر، لأننا نرى أن طريقة الاستدلال في أكثر أبحاثنا الكلامية لا تزال ـ كما هي ـ على الطريقة التي بحثها العلماء في القرون الماضية، بينما يعمل الدعاة إلى الله للدخول إلى العصر من أوسع أبوابه وأرحب ساحاته ولا بد لنا من التأكيد على نقطة مهمّة، وهي أننا لا ندعو إلى رفض التراث في منهجه الفكري جملةً وتفصيلاً، ولكننا ندعوا إلى تقديمه للناس بلغة العصر وبأسلوبه على

أساس الحديث النبوي المأثور «انا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم .

* * *

أمّا هذا الكتاب ، فإنه يمثل تجربةً حيّة في الانفتاح على الذهنية المعاصرة من أجل تقديم العقيدة للإنسان المعاصر بأسلوب حديث من خلال المحاضرات الملقاة على طلاب معهد دراسات اللغة العربية والعلوم الإسلامية لاعداد المبلغين» في الجمهورية الإسلامية في إيران وقد لاحظت أبحاث هذا الكتاب ـ بما اتسع لي من الوقت ـ فرأيت فيه أكثر من إيجابيةٍ في الفكرة والأسلوب بما يجسّد من الثقافة الفنية لمؤلفة الدكتور الشيخ عبد الرسول الغفار سائلاً الله سبحانه أن ينفع به المؤمنين والمبلّغين وأن يوفقه لكتب جديدة أخرى في الخط التصاعدي الفكري في المنهج الإسلامي العلمي المعاصر .

والله وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل .

محمد حسين فضل الله

بيروت ٢٠ صفر ١٤١٣ هـ

بسمه تعالى

المقدمة

سبحانك ما اضيق الطرق على من لم تكن دليله، وما اوضح الحق عند من هديته سبيله..، اللّهم اعنّي على اداء الحق وايصاله الى من كانت حاجته اليه، وعزّز خطواتي ومنهجي بالتسديد والتوفيق، واجعل همّي فيما اهمّني من قول الحق والصدق، ونصرة نبيك صلى الله عليه وآله وسلم واهل بيته، الكرام البررة، الذين جعلتهم مصابيح الدجى والادلاّء على الصراط المستقيم.

اللهم صلِّ عليهم صلاة دائمة كثيرة كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم...

لا نبالغ عندما نقول ان الاجواء العلمية والتكنولوجيا الحديثة التي يعيشها الانسان قد خلقت فيه عُقَداً وهموماً وآلاما تكاد ان تقضي عليه.

فتطّلع الانسان الى المكاسب المادية والاستفادة من اسرار الكون وما فيه من كنوز فحسب، حدا به ان يهتم بالجانب المادي ويترك وراءه كل القيم والعقائد والجوانب الروحية، بل فقد حتّىٰ الجوانب الخلقية التي لا بد منها في كل مجتمع.

ثم الصراعات الدائرة بين الغرب والشرق في الاستحواذ على خيرات البلدان الاسلامية من خلال هدم العقائد الدينية، والقضاء على المعالم الروحية في هذه البلدان، كانت هي الاخرى في سلب القيم الانسانية والمعاني الروحية من تلك الشعوب وجعلها مجتمعات دنيئة ترتمي في احضان الكفر والرذيلة.

مما حفّز ذلك المسلمين، وبالخصوص المؤسسات والمعاهد والجمعيات الدينية، للوقوف امام هذه المطامع والنوايا الخبيثة، التي صاغها الاستعمار بأساليب متعدّدة منمّقة..

لقد استخدم الاستكبار العالمي جميع وسائله الاعلامية ووظّف الكثير من الكوادر والمبلّغين لاغراء شعوب العالم الثالث وبالاخص الشعوب المسلمة كي تسير في ركابه وتكون مطية له.

امّا المسلمون فلم يكن لهم نشاط ملموس في التبليغ طيلة قرون باستثناء حالات فردية وعمل مبعثر..

فما احوجنا اليوم الى من يتصدى للتبليغ الديني، حيث الاف المدن في ارجاء المعمورة تنتظر قدوم طائفة من المصلحين لتنتشل الملايين من الناس من البؤس والشقاء الذي جلبته لهم الحضارة المادية الزائفة في القرن العشرين..

فالواجب ـ الكفائي ـ الشرعي قد تحتّم علىٰ من فيه القوة والقابلية ان يوصل كلمة الحق، بكل ما تعنيه الكلمة، الى روّادها وطلّابها..

كما نهيب بالاخرين ان لا يحتكروا هذا العمل انطلاقاً من مصالحهم الشخصيّة...

وانطلاقاً من المسؤولية اقدمت الجمهورية الاسلامية على فتح معهد دراسات اللغة العربية والعلوم الاسلامية لاعداد المبلغين، على ان يكون المنهج مكثّفاً ولمدة سنتين، وقد أُنيط بي تدريس المرحلة الثانية منه.

وبدوري شخّصت الاحتياجات العلمية للطلاب، مما دفعني ان اختار لهم خمسة فصول في العقيدة، بدءاً باثبات الصانع بالطريق العقلي، ثم الفصل الثاني من المعجزة والقرآن الكريم، والفصل الثالث في مفهوم العصمة وتنزيه الانبياء، والفصل الرابع في الحقوق مع عقد مقارنة بين القوانين الوضعية والقانون السماوي، ثم الفصل الخامس في الاقتصاد الاسلامي.

واملي كبير في تطوير هذا المعهد حتى يكون بمصاف الجامعات الاكاديمية والمؤسسات الثقافية العالية، كي يقدّم الخدمة الكافية في مجال العقيدة والتبليغ الديني الى اكبر عدد ممكن لمنتسبيه.

وانني بدوري اشكر دار ومكتبة الرسول الاكرم التي اقدمت على طباعة ونشر هذه المحاضرات توخياً لعموم الفائدة، فنبارك لصاحب هذه الدار الروح الدينية العالية، وفقنا الله واياه، انه من وراء القصد. عليه توكلت واليه انيب.

الدكتور عبد الرسول الغفار

بيروت ٥ ربيع الثاني ١٤١٢

الفصل الاول

اثبات الصانع

الصراع الدائر بين الإلهيين والمنكرين قديم جداً بقدم الخليقة، ومنذ نشوئها الاول واجلى صورة هو الحوار الدائر بين ابليس والملائكة لمّا طُرِدَ من الجنة خاسِئاً مذموماً بسبب استبداده بالرأي في مقابلة النص، واختيار الهوى رضى لنفسه قبال الأمر المولوي، واستكباره على المولى وعصيانه، وتفاضله على آدم عليه السلام بالمادة حيث خلق الله آدم من طين وخلق ابليس من نار وهذا في محكم قوله سبحانه وتعالى: ﴿**قال ما منعك ألا تسجد إذ امرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾[1].

فان اوّل شبهة وقعت في الخليقه هي شبهة ابليس اللعين، ومنها تفرّعت سبع شبهات التي كانت غذاء لاهل الجحود والضلال، حتى صارت تلك الشبهات مذاهب بدعة وضلالة وقد ذكرت الأناجيل الاربعة، انجيل يوحنا، ولوقا، ومتى ومرقص تلك الشبهات السبعة على شكل مناظرات بين ابليس والملائكة، بعد امتناع ابليس من السجود لآدم.

الشبهات السبع لابليس

قال اللعين: إني سلمت أن الباري تعالى وإلهي وإله الخلق عالم قادر ولا يسأل عن قدرته ومشيئته وأنه مهما أراد شيئاً قال له كن فيكون، وهو حكيم، إلاّ أنه يتوجه على مساق حكمته أسئلة، قالت الملائكة: ما هي؟ وكم هي؟ قال لعنه الله: سبع:

الأول منها: أنه قد علم قبل خلقي أي شيء يصدر عني ويحصل مني، فلم خلقني اوّلاً؟ وما الحكمة في خلقه إياي؟!.

والثاني: إذ خلقني علىٰ مقتضىٰ إرادته ومشيئته، فلم كلّفني بمعرفته وطاعته؟ وما الحكمة في هذا التكليف بعد أن لا ينتفع بطاعة ولا يتضرر بمعصية؟.

والثالث: إذ خلقني وكلّفني فالتزمت تكليفه بالمعرفة والطاعة فعرفت واطعت، فَلِمَ كلّفني بطاعة آدم والسجود له؟ وما الحكمة في هذا التكليف على الخصوص بعد أن لا يزيد ذلك في معرفتي وطاعتي إيّاه؟

والرابع: إذ خلقني، وكلّفني علىٰ الاطلاق، وكلّفني بهذا التكليف على الخصوص فإذا لم اسجد لآدم، فَلِمَ لعنني واخرجني من الجنّة؟ وما الحكمة في ذلك بعد أن لَمْ أرتكب قبيحاً إلا قولي: لا أسجد إلّا لك؟!

والخامس: إذْ خلقني، وكلّفني مطلقاً، وخصوصاً، فلم أطع فلعنني وطردني، فَلِمَ طرقني إلىٰ آدم حتىٰ دخلت الجنّة ثانياً وغررته بوسوستي، فأكل من الشجرة المنهي عنها، وأخرجه من الجنّة معي؟ وما الحكمة في ذلك بعد أن لو منعني من دخول الجنّة لاستراح مني آدم، وبقى خالداً فيها؟!

والسادس: إذ خلقني، وكلّفني عموماً وخصوصاً، ولعنني ثم طرقني إلىٰ الجنّة وكانت الخصومة بيني وبين آدم، فَلِمَ سلّطني على أولاده حتىٰ أراهم من حيث لا يرونني، وتؤثر فيهم وسوستي ولا يؤثر فيّ حولهم وقوتهم وقدرتهم واستطاعتهم؟ وما الحكمة في ذلك بعد أن لو خلقهم على الفطرة دون من يحتالهم عنها فيعيشوا طاهرين سامعين مطيعين . . كان أحرى بهم، وأليق بالحكمة؟!

والسابع: سلمت هذا كلّه: خلقني، وكلّفني مطلقاً ومقيّداً، وإذْ لَمْ أطع لعنني وطردني، وإذْ أردت دخول الجنّة مكّنني وطرقني، وإذْ عملت عملي أخرجني ثم سلّطني على بني آدم، فَلِمَ إذْ استمهلته أمهلني، فقلت أنظرني إلىٰ يوم يبعثون قال: **﴿إنك من المنظرين إلىٰ يوم الوقت المعلوم﴾**؟ وما الحكمة من ذلك بعد أن لو أهلكني في الحال أستراح آدم والخلق منّي وما بقي شرّ ما في العالم؟ أليس بقاء العالم على نظام الخير خيراً من أمتزاجه بالشر؟!

قال: فهذه حجّتي علىٰ ما إدّعيته في كل مسألة.

قال شارح الانجيل: فأوحى الله تعالىٰ إلىٰ الملائكة عليهم السلام قولوا له: إنَك في تسليمك الأول: أني إلهك وإله الخلق، غير صادق ولا مخلص، إذْ لو صدقت: أني إله العالمين ما احتكمت عليّ «بِلِمَ» فأنا الله الذي لا إله إلا أنا، لا أسأل عما أفعل، والخلق مسؤولون و.. الخ.

ثم سار الالحاد حيث وجد الإيمان جنباً الىٰ جنب فكلّما فُتن الناس بمغالطات الماديين والمنكرين تبعاً للشبهات التي تأصلّت في بعض النفوس المنحرفة عن الحقّ من اوّل بدء الخليقة الىٰ يومنا هذا نجد الىٰ جانب هذا الأنحراف في التفكير هناك الخط الإيماني الذي يتأصّل في نفوس قوم آخرين حتىٰ برز من بين الناس الحكماء والإلهيين الذين تبنّوا فكرة الحق وتوحيد الله وكان موقفهم هذا ردعاً للفلاسفة والمنكرين لوجود الباري.

مهمّة الأنبياء و... دور الفلاسفة والحكماء

إن بعثه الانبياء والرّسل جاءت لتهذيب النفوس من براثن الشرك والالحاد وانتشالها من الباطل، غير ان الشيطان زيّن للمنكرين سوء عملهم، وأبرز صورة وجدناها لأنكار الخالق عند فلاسفة اليونان وعلى رأسهم أبيقور الذي عرف في الأوساط اليونانية في (٣٠٠) سنة قبل الميلاد ثم وجد له اتباعاً ومريدين ليعلنوا الىٰ الملأ فلسفتهم الالحاديّة واقتفىٰ أثرهم المتأخرون الملحدون أمثال الفلاسفة الاوروبيين فورباخ وبوخنز ونيتشه وشوبنهاور... لكن الحق لا يعدم اهله حيث تصدّى لهذا الاتجاه الزائف الفلاسفة المؤمنون بوجود الباري سبحانه، امثال الفيلسوف ديكارت وبركسون والدكتور ا.ج. كرونين لقد توّصل الفيلسوف الفرنسي ديكارت العالم الرياضي (١٥٩٦ - ١٦٥٠ م) الىٰ وجود الله سبحانه من الشك في وجود نفسه فقال: «أنا أفكر، اذن أنا موجود».

ثم قال: ان لدّي فكرة الكمال وأنا غير كامل، فلو كنت مخلوقاً من قبل ذاتي لكنت خلقت ذاتي كاملاً، لأنني أمتلك فكرة الكمال، ولان اعطائي لذاتي ضروب

الكمال، سيكون ولا ريب، اقل صعوبة من أن اجذب نفسي من العدم، وبما أني غير كامل، فأنا اذن لم اخلق نفسي بنفسي.

اما الفيلسوف الفرنسي الموّحد بركسون Bergson فقد اتعب نفسه في العلوم الرياضيّة مدّة من الزمن وكلّما احدق في تلك المعادلات والخوارق في الذرة ازداد ايماناً بالله، فكان يقول ان الله موجود في الذّرة يبدعها ابداعاً وينظمها تنظيماً، أن «بركسون» عندما يرىٰ الحركة الدقيقة المَتسقة في الذّرة وحركتها في غاية النظام والدّقة لا ربط لها بالصّدفة، يستنتج بل يذعن ان يداً ربانية موجودة في الذّرة نفسها تؤثّر فيها فتَحركها بعدما اوجدتها.

اما الدكتور أ. ج. كرونين يستعرض قصّة حياته وانتقاله من الالحاد الىٰ الايمان يقول:

كنت ملحداً عندما كنت ادرس الطب في جامعة لندن وعندما كنت أقف امام جسم انساني في غرفة التشريح أحس بانني أمام جهاز شديد التعقيد، وفي الوقت نفسه، كنت افكر في الروح الخالدة في الله وكانت ابتسامة الاستخفاف والسخرية ترتسم علىٰ وجهي وكنت ارى في ذلك كلّه اسطورة بالية، وكان يشاركني في هذا الشعور اكثر طلاب الجامعة.

يقول: بقيت هكذا الىٰ أن أصبحت طبيباً وسافرت الىٰ منطقة المناجم بجنوب (ويلز) وصرت أجد نفسي أنفذ في مملكة الروح الانسانية، لقد شاهدت معجزة ميلاد الانسان وجلست الى الموتى واستمعت في الظلام الى رفرفة اجنحة الموت فتخلّىٰ عنّي غروري، فصرت أؤمن بالله.

ورأيت العمال كلهم يؤمنون بالله، ولا يمضي اسبوع واحد دون أن يقع هناك ما يؤيّد إيمانهم بالله وتوكّلهم عليه.

لن أنسىٰ ذلك اليوم ما حييت، فقد حدث انفجار مروّع أدّى الى سقوط المنجم على (١٤) عاملاً، وبقي هؤلاء العمال مدفونين تحت التراب خمسة أيام كاملة. وظلّت القرية تصلي لله لأجلهم، وأخيراً استطاع رجال الاسعاف أن يشقّوا

طريقهم الىٰ المنكوبين واستمعوا الى دعاء خافت ينبعث من الأنقاض: انه صوت العمال، يترنّمون بانشودة: «يا أرحم الراحمين» أخرجوا احياء من تحت الانقاض وهم منهوكو القوى والتفّ حولهم ألـوف من العمال وراحـوا يرددون: «يـا أرحم الراحمين في كل حين».

وعندما وقفت الى جوار هؤلاء المنكوبين، اجتاحتني هذه الموجة من الدعاء والصلوات، انها دليل آخر على أن ايمان الانسان، قد تجاوز كل كلام وكل تعبير.

وقال كرونين: ومنذ بضع سنوات، عندما كنت في لندن نظمت نادياً للشبان ودعوت اليه أحد المشتغلين بعلم الحياة، ليلقي محاضرة للاعضاء وقد اختار هذا الباحث الممتاز موضوع محـاضرتـه عن (بدايـة عالمنـا) وتحدّث بـأسلوب العالِم الملحد! وجعل يصف عصور (الآيون) السابقة علىٰ التاريخ. وكيف تحولت الأرض على مرٍّ هذه العصور من الغازيه الىٰ السيولة، الىٰ الصلابـة، وكيف أن الارض كانت مطمـورة في مياه المحيـطات، وكيف أن الامواج تعلو وتهبط على القشـرة الارضية، وكيف أن القشرة الارضية قد تكونت نتيجة تفاعلات طبيعيّة كيميائيـة، وكيف ان هذا التفاعل مع الزبد قـد ادّىٰ الى تكوين سـطح الارض التي نعيش عليها. ومن هذه الارض ظهرت الحياة الاولى علىٰ هيئة (پروتوپلازم)...

وعندما فرغ المتحدّث من محاضرته، صفّق له الحاضرون تصفيقاً مذهلاً، ولكن تلميذاً وقف في صورة عصبيّة وسأله: لاتؤاخذني يا سيدي لقد حدّثتنا عن الامواج الهائلة التي كانت تضرب الشواطىء، ولكن كيف وُجِدَت هذه المياه كلها اول الأمر؟!

وساد صمت كلّه حرج واحمّر وجه الأستاذ المحاضر، وقبل ان يجيب بكلمة واحدة استغرق الموجودون في الضحك. لقد انهار منطقه الحديدي بسؤال من تلميذ صغير.

والحقيقة هي أنه لا يـوجد ـ في كـل هذه الأبحـاث العلمية عن الـطبيعة والحكمة منها والعمليات المروعة الرائعة التي تجري فيهـا ـ اساس واحـد سليم

لإنكار وجود الله، بل ان الانسان ليجد نفسه مضطراً الى القول بأن هناك عقلاً كبيرا وراء هذا الخلق والحياة وقوانين الطبيعة[1].

«الدليل العقلي لاثبات الصانع»

لو اغمضنا عن الدليل النقلي لاثبات الصانع هنا آملين ان نبحثه في مناسبات اخرى اقول سوف نبسط الكلام في الدليل العقلي.

أعلم ان الموجودات تنقسم في وجودها الى:

اولاً: واجب الوجود:

وهذا ينقسم الى: أ ـ واجب لذاته

ب ـ واجب لغيره

ثانياً: ممكن الوجود.

ثالثاً: ممتنع الوجود.

تعريف الواجب: لغة يراد به الثبوت، كما عند الراغب الاصفهاني **واصطلاحاً** الواجب ما يُذمّ تاركه على بعض الوجوه.

اما الوجود فيعّرف: بالذي يمكن ان يخبر عنه، او ما يكون فاعلاً ومنفعلاً. ونقيض الوجود ـ العدم ـ الذي لا يمكن ان يخبر عنه، او ما لا يكون فاعلاً ولا منفعلاً.

ردّ شبهة

ولكن للخبير ان يعترض فيقول كلمة (الذي) يراد بها الشيء الموجود في الخارج وانتم استعملتم هذه الكلمة (الذي) في الوجود والعدم.

وهكذا بالنسبة للكلمة (يكون) فانها من الكون، والكون دال على الوجود وانتم استعملتم اللفظة تارة في الوجود واخرى في العدم، بمعنى انكم استعملتم في

---

(١) نصوص من مقال نشرته مجلة المختار في عددها الصادر لشهر كانون الثاني (١٩٥٦).

التعريف ما هو اكثر غموضاً من المعرَّف. ولا بد في التعريف أن تستعمل الفاظاً اكثر وضوحاً من المعرُّف ومغايرة له..

ثم ان تعقّل الوجود والعدم امر بديهي، لا يحتاج الى تعريف. هذا ما ذهب اليه الفخر الرازي. ثم ان القوشجي قال: ان التصديق بالتنافي بين الوجود والعدم ـ اي قولنا الشيء اما موجود واما معدوم ـ بديهي ويتوّقف على تصوّر الوجود والعدم ضرورة توقف التصديق على تصوّر أطرافه وما يتوقّف البديهي اولىٰ بالبديهة، وإن كان هذا البيان لا يرتضيه الحكيم (نصير الدين الطوسي) حيث يقول: «والاستدلال بتوقف التصديق بالتنافي عليه باطل».

اما وجه البطلان يمكن تقريبه بقولنا ان التصديق البديهي لا يجب أن يكون تصوراته بديهياً، مثاله التصديق بعدم اجتماع السواد والبياض وكذا الماء والنار، فعدم اجتماعهما امر بديهي، ومع ذلك فحقيقتهما غير معلومة، وهكذا تصديقنا بوجود الخالق امر بديهي لنا مع بداهة ذات الخالق.

وكيف ما كان، إنّ التصديق متوقّف على تصور الطرفين اجمالاً، لا معرفتهما بالكنه.

النسبة بين الوجود والعدم

ثم ان الواجب والممكن يعرفان من خلال النسبة بين الوجود والعدم:

فالواجب عبارة عما لا نسبة له الى العدم اصلاً.

والممكن عبارة عما له نسبة الى الوجود والعدم على حدٍ سواء، فان وجدت علّته وُجِد وإن فَقَدَ علتّه عُدم.

امّا الممتنع: عبارة عما لا نسبة له مع الوجود اصلاً.

الوجود الذهني والخارجي

ثم ان الوجود امّا ان يكون ذهنيّا، وامّا ان يكون خارجياً.

امّا القسم الثاني فلا يشك به احد ولا يختلف فيه اثنان. وهي الموجودات الخارجية التي تدركها الحواس الانسانية.

وامّا القسم الاول ـ حيث الكلام فيه ـ اثبته المحققون، ونفاهُ من عداهم وهم الملحدون، والنفي انّما حصل لعدم تصوّر الوجود ذهنياً بحدً زعمهم، إذا اردنا ان نتصور النار في الذهن، اذن لا بد ان يكون الذهن ـ عند تصوّره النار ـ حاراً، أو لا بد ان يكون محترقاً. . . !

وهذا لا يخفىٰ بطلانه.

ووجه البطلان: ان الموجود في الذهن ليس نفس حقيقة الشيء حتىٰ يلزم اتصاف الذهن بمستلزماته، او يكون دعاءً لصفاته الحقيقية.

ويؤكد هذا المعنىٰ الحكيم الطوسي، فيقول: والموجود في الذهن انّما هو الصورة المخالفة في كثير من اللوازم.

اتّضح مما تقدّم ان الوجود الذهني ممكن تصوّره.

تعقل الوجود

ثم هذا الوجود امّا ان نتعقّل وجوبه، أو نتعقّل امكانه، أوْ لا نتعقّلهما، فالمعقول ـ اي ما اتسع العقل فادركه ـ اذن ينقسم الىٰ:

١ ـ واجب بالذات، كالباريِ سبحانه، وهذا ما نطلق عليه واجب الوجود.

٢ ـ ممتنع بالذات، كشريك الباري، وهذا ما نطلق عليه ممتنع الوجود.

٣ ـ ممكن بالذات، كالانسان، وهذا ما نطلق عليه ممكن الوجود.

اقول: لا يجتمع اثنان مما تقدّم، كما لا يمكن الخلو من احدهما، كما يتعذّر انقلابها.

فالواجب بالذات لا يكون ممتنعاً بالذات، وبمعنى أن الواجب لا ينقلب الى ممتنع او ممكن بالذات، لان لزوم الشيء لذاته أو ما هو داخل في الذات لا يعقل انقلابه الى شيء مغاير لذاته او حقيقته، فالحيوان لا يمكن ان ينقلب الىٰ انسان، والزوج لا ينقلب الىٰ فرد.

نعم يصدق الانقلاب فيما لو كان الشيء خارجاً عن الذات، كالنائم ينقلب مستيقظاً والمتحرّك ينقلب ساكناً، والمتكلّم ينقلب صامتاً.

فهذه صفات وحالات تتّسم بها الذات الممكنة دون القسمين الآخرين.

لهذا نقول ان القسمين اعني الوجوب والامتناع يلازمان الضرورة. فالخالق سبحانه واجب بالضرورة، والشريك له ممتنع بالضرورة. وعلى هذا البيان فان الوجوب والامتناع يصدق كل منهما على الآخر، اي ان واجب الوجود وهو الباري سبحانه ممتنع العدم وان واجب العدم وهو شريك الباري ممتنع الوجود.

مما تقدّم نفهم القسم الثالث، وهو الممكن بالذات. ويُعْرف هذا من خلال الواجب والممتنع، حيث ان الممكن بالذات هو الواجب بالغير، إذْ ان الممكن اذا وجدت علّته التامة كان واجباً بالغير اي الممكن بالذات. وان لم توجد علّته التامة كان ممتنعاً بالغير وهو ايضاً الممكن بالذات.

القديم والحادث والمؤثر

ان الممكن لا بد من مؤثر يؤثّر فيه، وقد اختلف الكلاميون في اصل هذا المؤثر فمنهم من قال المؤثر هو الامكان، لكون الممكن معلول، والمعلول يحتاج الىٰ علّة.

والبعض ادّعىٰ الحدوث لكون الممكن حادثاً.

وفريق ثالث جمع بين الامرين، الامكان والحدوث. وقد اختار الحكيم الطوسي الاتجاه الاول للمؤثر وهو الامكان.

وعلىٰ هذا يترشح من البحث المتقدّم ان الموجود امّا قديم وامّا حادث.

فالموجود الاول ـ الذي نعبّر عنه بعلّة العلل ـ هو القديم، والذي نعرّفه غير مسبوق بالغير ولا مسبوق بالعدم.

اما الذي يكون مسبوقاً بالغير او مسبوقاً بالعدم فهو الحادث، والحادث مترشح من القديم فالقديم هو الاوّل.

لوازم الواجب بالذات

اوّلاً: ان يستحيل صدق التركيب عليه.

لان كل مركب محتاج الى اجزائه وكل محتاج ممكن.

امّا كون المركب محتاج فامر بديهي، لانّ لفظ التركيب تعني مجموعة اجزائه، وامّا كون المحتاج ممكن فهو في وجوده محتاج الىٰ الغير، كما ان وجوده ليس من نفسه، وما كان وجوده ليس من نفسه فهو الممكن.

ثانياً: ان لا يكون جزءً من غيره.

بأن يتركب الواجب شيء منه ومن غيره، لان في التركيب تماسك الاجزاء بمعنى تأثير كل جزء بالآخر، والذي يعرف بالفعل والانفعال، وحينئذٍ يكون تأثير غير الواجب في الواجب، وهذا يحصل امّا بزيادة فيه او نقيصة عنه، او بتبديل حال منه الىٰ حال آخر والجميع يستحيل على الواجب بالذات.

ثالثاً: ان لا تزيد نسبة وجوده علىٰ ذاته.

لان زيادة الوجود دليل علىٰ تغاير بين الوجود والذات، والذات هي المعبر عنها بالواجب وهي عين الوجود، ولو كانت الزيادة لكانت المغايرة.

واذا تغاير الوجود لذاته حصل الافتقار للذات في الاتصاف به الىٰ العلّة والمحتاج الى العلّة ممكن ليس بواجب.

وبهذا العرض السريع والمبّسط نتسخلص ان الباري سبحانه واجب الوجود لذاته وهو المطلوب.

اقول اذا تمّ الدليل العقلي، فلا بأس ان نستعرض بعض الشواهد كالايات القرآنية التي يفهم منها انه سبحانه انكر على البشر ـ لما اشركوا به ـ وشدّد عليهم في التوبيخ فقال تعالىٰ:

﴿أإله مع الله تعالىٰ الله عما يشركون﴾(1).

وقال تعالى: **﴿أإله مع الله قُلْ هاتوا برهانكم إنْ كنتم صادقين﴾**(2).

وقال تعالى: **﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله. . .﴾**

وهناك آيات عديدة بيّن فيها سبحانه بديع صنعه ودقّة عظمته في آثاره، وقدرته غير المتناهية. . بيّن ذلك بتفصيل جميل واسلوب واضح يفهمه الناس.

---

(1) سورة النمل الآية (٦٣).

(2) سورة النمل الآية (٦٤).

قال تعالىٰ: ﴿أولم ينظروا في ملكوت السماوات والارض﴾؟[1].

وقال تعالىٰ: ﴿أولم يروا الىٰ ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمن والشمائل..﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿افلا ينظرون الىٰ الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والىٰ الجبال كيف نصبت﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين..﴾[4].

وآيات كثيرة اراد سبحانه ان يلتفت البشر اليها بادنى تفكير ونظر وملاحظة، اراد سبحانه ان ينظر الناس الىٰ ما حولهم من آثار وموجودات تدل على وجوده وبديع صنعه، فهو الخالق الباريء، المصوّر، المبدء، المبدع، المهيمن، العزيز، الجبار، القادر، القاهر... الأوّل الذي اليه تنتهي كل العلل لانه واجب الوجود ولا أوّل قبله. والآخر وليس آخر بعده قيل للامام الرضا عليه السلام يا ابن رسول الله، ما الدليل على حدوث العالم؟

قال: أنت لم تكن ثم كنت وقد علمت انّك لم تكوّن نفسك، ولا كونك من هو مثلك.

وقال عليه السلام: اني لما نظرت الىٰ جسدي ولم يمكني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه، وجر المنفعة اليه، علمت أن لهذا البنيان بانياً بناه، فاقررت به مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته وانشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الايات العجيبات المبينات، علمت أن لهذا مقدراً منشئاً.

---

(١) سورة الاعراف الآية ١٨٥.

(٢) سورة النحل الآية ٤٨.

(٣) سورة الغاشية الآيتان ١٧ ـ ١٩.

(٤) سورة فصّلت الآية ٩.

العلّة والمعلول بين الماديين والالهيين

بعد تلك الآيات البيّنات ـ المُتقدّمة ـ التي وبّخ سبحانه الناس الّذين جعلوا له شريكاً، وبعدما ثبت الدليل بالطرق النقلية والعقلية علىٰ وجود الصانع، ارتأينا الإشارة الىٰ بعض ادلّة المنكرين لوجود الصانع وكذا المثبتين، وسوف نقتصر الحديث عن العلّة والمعلول فقط.

اختلف الماديّون عن غيرهم لمّا انكروا قانون العلّيّة بسبب اكتشاف العلوم البحتة لبعض القوانين الراسخة في الطبيعة.

فاصحاب المادة من المنكرين لوجود الصانع، زعموا أن حجّة الإلهيين في اثباتهم الصانع انهم وجدوا في الكون او الطبيعة حوادث وموجودات جهلوا عللها الماديّة ـ ولما ارادوا البسط في اظهار معتقداتهم ـ لزمهم من جهة القول بعموم قانون العلّيّة والمعلوليّة في الاشياء والحوادث ان يحكموا بوجود عللها وهي مجهولة لهم بعدُ.

فابقى ذلك القول بأن لهذه الحوادث المجهولة العلّة علّة مجهولة الكنه وهي وراء عالم الطبيعة وهو الله تعالى. فالقول بأن الصانع موجود فرضية اوجب افتراضها ما وجده الانسان الاول من الحوادث الماديّة المجهولة العلل كالحوادث الجويّة وكثير من الحوادث الارضية المجهولة العلل، وما وجده الانسان في عصر العلم من الحوادث الروحية المجهولة العلل لحد اليوم.

الطائفة الأولى ـ الماديون

قال الماديّون: لقد وفّق العالم في تقدّم العلوم الحديثة لحل المشكل في الحوادث الماديّة وكشفت العلوم عللها فأبطلت من هذه الفرضيّة احد ركنيها وهو احتياج الحوادث الماديّة المجهولة العلل الى علل ورائها. وبقى الركن الآخر وهو

احتياج الحوادث الروحيّة الىٰ عللها وانتهائها الى علل مجّردة. وتقدم البحث في الكيمياء الالي جديداً سيطلع الانسان علىٰ علل الروح ويقدر على صنعة الجراثيم الحيوية وتركيب اي موجود روحي وايجاد ايّ خاصية روحيّة، عند ذلك ينهدم الركن الثاني وهو اساس الفرضية المذكورة.

الطائفة الثانية - المثبتون

المثبتون لما اثبتوا لجميع العالم صانعاً واحداً، او كثيراً، قالوا بذلك وهم يشاهدون العلل في بعض الحوادث المادية، فإثباتهم إلٰها صانعاً لجميع العالم استناداً الىٰ قانون العلّيّة العام، ليس لاجل أن يستريحوا في مورد الحوادث المجهولة العلل حتى ينتج ذلك القول باحتياج بعض العالم الى الإلٰه واستغناء البعض الآخر عنه، بل لاذعانهم بأن هذا العالم المؤلّف من سلسلة علل ومعلولات طبيعية بمجموعها ووحدانيتها لا يستغني عن الحاجة الى علة فوق العلل تتكي عليها جميع التأثيرات والتأثرات الجارية بين اجزائه.

والغريب من هؤلاء الذين قالوا بهذا البسط في العلة انهم قالوا في الحوادث ومنها الافعال الانسانية بالجبر المطلق.

كما ان المثبتين قالوا: ان جميع العالم مستند الىٰ الاله الصانع وفيه العلل والمعلولات.

بعد اثبات عموم العلّية، اثبته الحكماء وبنوا فيها علىٰ وجوب انتهاء العلل الممكنة الىٰ علّة واجبة الوجود.

امّا القرآن الكريم فيثبت توحيد الإله علىٰ تقرير جريان العلّية العام بين اجزاء العالم، فإنه ينسب الأفعال الطبيعية الى موضوعاتها وفواعلها الطبيعية وينسب الى الانسان افعاله الاختياريّة في كثير من الآيات الكريمة، ثم ينسب الجميع الىٰ الله

سبحانه، قال تعالى: ﴿الله خالق كل شيء﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله الا هو﴾[2]، ﴿وما رميت إذْ رميت ولكن الله رمىٰ﴾[3].

العقل ومعرفة الله

عن الفتح بن يزيد عن الامام ابي الحسن الرضا عليه السلام قال: «سألته عن أدنى المعرفة فقال: الاقرار بأنّه لا إله غيره ولا شبه له ولا نظير وأنّه قديمٌ مثبتٌ موجود غير فقيد، وأنّه ليس كمثله شيء»[4].

لقد اكمل الله سبحانه الحجج للناس بالعقول، فجعل لكل امرىء عقلاً يفكّر به ويتدّبر الامور، وينهج له الحياة التي وكّلت خياراتها للانسان ثم الحذر من آفاتها ومهالكها.

فبالعقل يكتسب الخير وبالجهل يكتسب الشر، واي خير افضل من الجنّة التي وعدها الله سبحانه لعباده المؤمنين، واي شر اخسأ من النار التي كانت حقاً للذين كفروا بربّهم..

عن الكليني باسناده عن اسحاق بن عمّار قال: قال ابو عبد الله عليه السلام: «من كان عاقلاً كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنّة»[5].

وروي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: «ما قسّم الله العباد شيئاً افضل من العقل، فنوم العاقل افضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل افضل من شخوص الجاهل، ولابعث الله نبّياً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل، ويكون عقله افضل من جميع عقول أمّته وما يضمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في نفسه افضل من اجتهاد المجتهدين، وما ادّى العبد فرائض الله حتىٰ عقل عنه،

---

(١) سورة رعد الآية ١٦.
(٢) سورة غافر الآية ٦٢.
(٣) سورة الأنفال الآية ١٧.
(٤) الكافي ـ كتاب التوحيد ١/٨٦ الحديث الاول، باب أدنى المعرفة.
(٥) الكافي ـ كتاب العقل والجهل ١/١١ الحديث السادس.

ولابلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل، والعقلاء هم أولـو الالباب، الذين قال الله تعالى: **﴿وما يتذكّر إلاّ أولو الالباب﴾**[1].

فايّ حجّة افضل وابلغ واكمل من العقل عند الانسان. . .؟! الذي بالعقل تكون سعادة المرء، لكن سؤال يطرح نفسه هنا، ما هي السعادة؟ وما المطلوب من الانسان. . .؟!

اوّل تلك السعادة هي معرفة الله، وهذا هو اوّل حقّ يكون البحث فيه.

لقد مهّد سبحانه للناس بعدما وهبهم العقل أن وضع لهم الدلائـل والآثار الدالة على وجوده فطلب منهم ان يبصروا تلك الدلائل الكونية بالمنظار المحسوس، ثم التفكّر بها باستخدام العقل في الموازنة والتدّبر.

ان سلامة العقيدة والنظر الصائب وانصاف المرء من نفسه، يقوده الىٰ معرفة الله سبحانه، وذلك بادنى التفات من المرء الى نفسه وخلقته، الى بدايته ونهايته، فنظر العبد الدقيق مع سلامة الفطرة يقوده الى معرفته بخالقه سبحانه، لهذا يتحتّم علينا ـ بتفكيرنا السليم ـ ان نوحّد الله جل اسمه، فهو ليس كمثله شيء، قديم منذ الازل، فهو لم يزل ولا يزال، هو الاول وعلّة العلل، ومصدر الوجود والفيض، وهو الآخر، فكل شيء فانٍ الا وجهه الكريم، فهو الآخر وهو الباقي بعد فناء كلّ شيء، لا يوصف بما توصف به المخلوقات لانه ليس بجسم ولا صورة، ولو قلت بذلك فقد جسّدته، والله منزّه عن الجسميه، وقد كفر من جسّده كاليهود لما قالت «يد الله مغلولة غلّت ايديهم»، وكذا لما قال آخرون انه يجلس على الكرسي كما يجلس البشر متخذين قوله سبحانه: **﴿وكان عرشه على الماء﴾**[2]. وقوله: **﴿ثم استـوى على العرش يدبّر الأمر. .﴾**[3]. فكما اليهود جعلوا لله صفات المخلوقين فكذلك طوائف من الاسلاميين كالمجسّمة والمشبّهة وصفوه كيف يجلس وكيف ينظر وكيف ينزل، وكيف يتكلّم.

---

(١) الكافي، كتاب العقل والجهل ١/١٢ الحديث الحادي عشر.

(٢) سورة هود الآية ٧.

(٣) سورة يونس الآية ٣.

ثم انه ليس بجوهر ولا عرض، لان الجوهرية والعرضية من مستلزمات الجسميّة، وهكذا ليس له ثقل ولا وزن، لانك ان قلت به لم تخرج عن تجسيده، ثم ليس له حركة ولا سكون، ولا يشغل حيّزاً من المكان او الزمان، فلا يشار اليه ببنان او غيره، بل انه: ﴿اينما تولّوا فثمّ وجه الله﴾ و ﴿الله نور السماوات والارض. . ﴾ و ﴿الله لا إله الا هو الحيّ القيّوم﴾.

سبحانه لا يمكن تشبيهه بشيء ولا شيء له شبيه به، كما لا ضدّ له ولا ند، فلو شبّهته بشيء، يعني انك انزلته منزلة المشبّه به، والاخير امّا اعمّ أو أخص، وفي كلا الحالتين نقصٌ وتعالى سبحانه عن النقص.

ثم لا صاحبة له. . ولا ولد. ولا كفوء له. ولا شريك له. .

اذن من هو الله. . ؟ تجد معرفة الله سبحانه ما قاله عن نفسه وقوله الحق، وامر البشر ان يقولوا: قل هو الله احد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد.

في الاحتجاج وغيره ان اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: انسب لنا ربك فلبث ثلاثاً لا يجيبهم، ثم نزلت ﴿قل هو الله احد. . ﴾.

وعن الامام العسكري عليه السلام ان السائل عبد الله بن صوريا اليهودي.

وعن النيسابوري: قال قتادة والضحاك ومقاتل: جاء ناس من اليهود الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: صف لنا ربك، فإن الله انزل نعته في التوراة، فاخبرنا من اي شيء هو؟ ومن أي جنس هو؟ أذَهَبٌ أم نُحاس أم فضّة؟ وهل يأكل ويشرب؟ وممّن ورث الدنيا ومن يورثها؟

فانزل الله تبارك وتعالىٰ هذه السورة، وهي نسبة الله خاصة[1].

وقيل ان السائل عبد الله بن سلاّم، سأله ذلك بمكة ثم آمن وكتم ايمانه، وقيل ان مشركي مكه سألوه ذلك.

لو حرص البشر جميعاً ان يميّزوه سبحانه بأوصاف المخلوقات، ولو في ادق المعاني واجمل العبارات، فان ذلك من الاوهام والتخّرصات بل صائر ومخلوق مثلنا

---

(١) اسباب النزول /ص (٣٠٩).

مصنوع، وكل مخلوق ومصنوع حادث، وسبحانه ليس بحادث، كما عرفت انه منذ الازل.

ولا يخفى ان بعض الطوائف والفرق التي انتحلت الاسلام والتي تسمّيها بالمجسّمة والمشبهة انهم جمدوا على ظواهر الالفاظ من القرآن الكريم، او بعض النصوص من الحديث والاخبار، وتركوا عقولهم وجمدوا على الظواهر، فلم يسعهم القرآن فهماً وادراكاً لدقائق المعاني والتأويل.

ثم نهى سبحانه الناس من أن يشركوا في عبادته احداً قوله تعالى: ﴿**وقال الله لا تتخذوا آلهين اثنين إنّما هو إله واحد...**﴾[1].

وقال تعالى: ﴿**ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله...**﴾[2].

وعندما نفحص في الآيات المباركة نجد كثيراً منها قد وجهّت التوبيخ الشديد لمن شك في وحدانيته، بل حذّرهم من الكفر والخسران.

قوله تعالى: ﴿**أإله مع الله بل اكثرهم لا يعلمون**﴾[3]، ﴿**أإله مع الله بل هم قوم يعدلون**﴾[4]، ﴿**أإله مع الله تعالى الله عما يشركون**﴾[5]، ﴿**أإله مع الله قليلاً ما تذكّرون**﴾[6]، ﴿**أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾[7]، ﴿**ومن يقل منهم إني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم...**﴾[8].

معرفة الله: ـ توحيده

يشمل البحث عن التوحيد الاقسام الآتية:

توحيده في الذات

توحيده في الصفات	الصفات الثبوتية (الكمالية)
توحيده في العبادة	الصفات السلبية (الجلالية)

(١) سورة النحل الآية ٥١.
(٢) سورة المؤمنون الآية ٩١.
(٣) و(٤) و(٥) و(٦) و(٧) سورة النمل (٦٠ ـ ٥٤).
(٨) سورة الانبياء الآية ٢٩.

توحيد الذات

في مجال التوحيد نحاول ان نوجز الحديث فيه ونحيله الىٰ كتب العقائد والكلام حيث فيها بسط من الكلام. فبعبارة مختصرة انه سبحانه واحد أحد ليس كمثله شيء، كان موجوداً منذ القدم فهو قديم، وان وجوده واجب لا محالة وشريكه ممتنع وجوباً لا محالة، لان لا يصلح للكون ان يكون فيه الهاً غيره ﴿**لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا**﴾(١).

لا تدركه الابصار ولا يستطيع المخلوق ان يصل الىٰ كنهه فمهما كان ذهن الانسان له من القابلية والقدرة والاستعداد لا يصل الى ما يريده من تصور ذاته، وعلو الهمم لا يمكن ان تدركه، وقد عرفناه قديماً منذ الازل لانه لم يكن مسبوقاً بالغير كما انه سبحانه لم يكن مسبوقاً بالعدم لهذا كان الواجب الوجود وهو سبحانه.

توحيد الصفات

لمّا كانت معرفته اساس الطاعة والعبادة فما لم يعرف لا يمكن ان يطاع، ولا تتّم معرفته الاّ بإذعان العبد بوجوب وجوده، ولا يكون هذا الإذعان ما لم يؤمن العبد بوحدانيّته، اي لا شريك له، لان الواجب لا يتعدد، وقد تمّ الدليل عليه فيما سبق، إلاّ ان كمال هذا التوحيد لا يتمّ الا بالاخلاص له، ومن جملة الاخلاص هو نفي الصفات الزائدة عنه. فصفاته عين ذاته. فان علمه وقدرته، وارادته، وسمعه، وبصره، كلّها موجودة بوجود ذاته الاحديّة، وذاته جامعة ومستوعبة لها، وهي عينها، وليست زائدة علىٰ الذات خارجة عنها.

كما ان صفاته الذاتية من القدرة والاختيار والعلم والحياة ليس لها حدّ معيّن ينتهي اليه ويقف عنده، كما هو الحال بالنسبة للمخلوقات التي يعتريها التغيّر، أو توصف بالزيادة والنقصان، فقدرته لا توصف بالقوّة والضعف، وكذا علمه لا يوصف

---

(١) سورة الانبياء الآية ٢٢.

بالزيادة والنقصان، فقدرته من حيث الوجود حياته، وحياته، قدرته، فهو قادر من حيث هو حي، وحي من حيث هو قادر. فصفاته عين ذاته، وهي ازليّة ليس لها وقت معدود، وأبدية فليس لها اجل محدود.

ثم ان صفاته تكون على قسمين:

أ ـ الصفات الثبوتية وهذه على نحوين:

١ ـ الصفات الثبوتية الحقيقية والتي تسمىٰ بالصفات الكمالية. (صفات الجمال والكمال) كالعلم والقدرة والغنى والارادة والحياة.

٢ ـ الصفات الثبوتية الإضافية، كالخالقية والرازقية والتقدم والعلّية وهذه ترجع الى صفة القيّوميّة لمخلوقاته.

ب ـ الصفات السلبيّة (الجلال) وهي ترجع جميعها الى سلب واحد، وهو سلب الامكان عنه أو قل سلب كل نقص عنه سبحانه. مثل سلب الجسمية والسكون والحركة والثقل والخّفة.

توحيد العبادة

العبادة ضرب من الشكر وغاية فيه، لانها الخضوع والتذلل، وهي تدّل علىٰ علىٰ مراتب التعظيم، ولا يستحق العبادة احد الاّ من كان هو الفيض في اصول النعم ومعطيها، والعبادة تختلف عن الطاعة، لان العبادة مختصة بالله سبحانه، والطاعة مشترك بينه وبين غيره، فرّبما تطيع من سواه كالأب والزوج والسلطان، ومع ذلك طاعتك لهم قد لا يصحبها التذلل.

قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مخاطباً معاذ: يا معاذ تدري ما حق الله علىٰ العباد؟ قلت: الله ورسوله اعلم، قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد علىٰ الله عز وجل أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً.

لهذا اكدّ سبحانه الغاية من خلق الناس، فقال تعالىٰ: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس الا ليعبدون﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلٰهاً واحداً﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿وما أُمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿إنْ الحكم الا الله أمَرَ ألا تعبدوا إلاّ ايّاه..﴾[4].

وقال تعالىٰ: ﴿.. وقضىٰ ربّك ألاّ تعبدوا إلا ايّاه﴾[5].

وقال تعالىٰ: ﴿إذْ جاءتهم الرسل من بين ايديهم ومن خلفهم ألاّ تعبدوا إلاّ الله﴾[6].

وقال تعالىٰ: ﴿ولقد بعثنا في كلّ امّة رسولاً أن اعبدوا الله...﴾[7].

هذه الآيات وغيرها امرت بعبادة الله سبحانه وحده لا شريك له علىٰ ان تكون العبادة خالصة لوجهه الكريم من جميع الجهات.

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦.
(٢) سورة التوبة الآية ٣١.
(٣) سورة البينة الآية ٥.
(٤) سورة يوسف الآية ٤٠.
(٥) سورة الاسراء الآية ٢٣.
(٦) سورة فصلت الآية ١٤.
(٧) سورة النحل الآية ٣٦.

الفصل الثاني

المعجزة والقرآن الكريم

قبل الخوض في الموضوع والحديث عنه لا بد ان نعطي صورة مبسطة وواضحة المعالم عن المعجزة والكرامة - واثر رياضة النفس فيها - من خلال تعريفهما والكلام عنهما بايجاز.

المعجزة

العجز نقيض الحزم، والمعجزة بالفتح على القياس لانه مصدر هو الضعف[1] وعدم القدرة.

والاعجاز هو الفوت والسبق يقال اعجزني فلان آي فاتني، قال الليث: اعجزني فلان اذا عجزت عن طلبه وادراكه.

قال ابن عرفة في قوله تعالى: ﴿معاجزين﴾ اي يعاجزون الانبياء واولياء الله اي يقاتلونهم ويمانعونهم ليصيروهم الى العجز عن امر الله، وليس يعجز الله جل ثناؤه، خلق في السماء ولا في الارض ولا ملجأ منه الاّ اليه[2].

وقد يكون من العجز، يقال عجز يعجز عن الامر اذا قصر عنه، والمعجزة واحدةُ معجزات الانبياء[3] عليهم السلام، وهي القوة الخارقة لقوانين الطبيعة ووسائلها المادية، المتحدية لقوى البشرية كافة، والفطرة الانسانية المجبولة على

---

(١) و(٢) لسان العرب، مادة عجز.

(٣) مجمع البحرين ج ٤ كتاب الزاي، باب ما اوّله العين. ولسان العرب مادة عجز.

مقايسة الامور وفرز الفاضل من المفضول، هي التي تشخص موارد الاعجاز، وموضوع المعجزة، ولون التحدي الذي يصنع الخلود في المجال المخصص له.

وربما اول سؤال يواجهنا لِمَ هذه المعجزة؟

واذا كانت الحياة اليوم تختلف عن حياة الماضي. الذي كان الجهل مطبقاً على البشرية، والجاهلية الرعناء كانت تسود شبه الجزيرة العربية لسنين طويلة والى اليوم، والاستبداد من قبل الحكّام والمتنفذين يخيم على كافة الشعوب انذاك والتي ظلّت طيلة قرون عديدة تفتقر الى العلم والمعرفة.

فالجهل والامية شمل اغلب طبقات المجتمع باستثناء القلة من الحكّام والساسة.. فلو كانت المعجزة لها دور في الامم الماضية، فما دورها اليوم الحاضر؟

واذا حدث اليوم ما هو خارق للعادة هل يصح ان نقول عنه معجزة؟ كما ان الشعوب البسيطة الساذجة لا حاجة لها الى المعجزة الخارقة للعادة، فعلام اذن تلك المعجزات التي جاء بها الانبياء حتى اصبحت موضوعاً مهماً لتصديق الامم برسالة الانبياء عليهم السلام في كل زمن؟

تبعاً لهذه الاسئلة سوف تكون الاجابة واضحة من خلال الحديث الذي نتناوله عن المعجزة ودورها في حياة الرسول او النبي الذي يعيش بين قومه في اقدم العصور ومستوى الامة في تقبل الرسالة...

الملاحظ ان عوام الناس ـ وهم موجودون في كل زمان ـ ينقادون الى ادنى مصلح او مرشد يهتم بامورهم المعاشية والدنيوية، فيتبعونه ويقيمون له وزناً، ويقتفون له اثراً، ويستجيبون له دعوة.. وهكذا شأنهم في تصديق من سما في عالم الفضل والمعرفة والاخلاق.. لان هذه الشريحة من المجتمع سريعة الانفعال والاستجابة، وبساطتهم تحكم على اتباع غيرهم بادنى اشارة، هذا فيما لو خُلّيَ الانسان وطبعه الفطري السليم... اما اذا حملت النفس البشرية شوائب الجهل ومعتقدات فاسدة، بحيث سلب منها تلك الفطرة التي اودعها الله سبحانه فيه، حينئذ تجد من الصعوبة جداً اقناع تلك النفوس المريضة بالموعظة، او الارشاد، او الوسائل العادية المتعارضة، بل لا بد من شيء فوق هذا وذاك، خارج عن تصور

البشر، كي تذعن النفوس للحق بعدما تطهّرها من دنس الخرافات والعقائد الفاسدة وخبث السريرة والمعتقد..

هذه الشريحة من المجتمع، على سذاجتها وتركيبها العقائدي، والضلال الذي هي عليه، بحاجة الى شيء عظيم لكي يحررها من واقعها، وينتشلها من السقم في التفكير، والجهل المطبق الذي لا تنفع معه جميع الوسائل المادية والاساليب العلمية المتّبعة.

اذن لا بد من مسلك يفوق تلك، ومن قوة خارقة بحيث لا يجرأ العقل علىٰ تكذيبها.. لهذا جاءت المعجزة من عند الله سبحانه على يد انبيائه عليهم السلام، لتكون هي القوة الوحيدة لتزرع الايمان في نفوس اولئك، وارساء فكرة التوحيد في القلوب والاذهان.

اضف الى ذلك ان دور المعجزة واثرها لا يقتصر على اولئك السذج من الناس، وانما يتعدى اثرها حتى الى قلوب المؤمنين فيجعلها قلوباً عامرة بالايمان الخالص، واليقين الصادق.

فالمؤمن عندما يجد امراً خارقاً للعادة، ومعجزة خالدة بخلود الدهر، تتعدىٰ كل نواميس الحياة وقواميس الطبيعة، ووسائل العلم والمعرفة، مما يزداد ايمانه قوة وصلابة، ويشتدّ يقينه بالله سبحانه، مما تكون عقيدته في التوحيد راسخة، كما انه في نفوس الغير متأصلة.

وهكذا تتعدىٰ المعجزة في آثارها المعنوية وهيمنتها علىٰ النفوس الىٰ كثير من طبقات المجتمع التي كانت معاصرة لفترة الوحي والرسالة، لهذا كانت مقياساً ضرورياً، وحتمية لا بد منها في رسالة الانبياء من جهة وفي اخضاع النفوس لشريعة السماء واقناعها بالحق، بغية لنشر الفضيلة واصلاح الذات وسيادة العدل في المجتمع من جهة اخرى.

اذن المعجزة موضوعها اقناع الناس واخضاعهم للهداية والاستقامة من خلال ردع المكذّبين بالرسالة والجاحدين لهذا اولاً، وتثبيت ضعاف الايمان ـ بل وحتى المؤمنين ـ ثانياً وهذا لا يتمّ إلا بالتحدّي لمقاييس الطبيعة التي تسالم عليها الناس

منذ اقدم العصور، وما هو خارق للعادة ولجميع الوسائل المادية، تلك هي العلامة التي تفرد بها الله سبحانه وتعالى وقد منحها لانبيائه ورسله وحججه واوليائه ليعرف الناس من خلالها عظمة الله سبحانه وقدرته اولاً. ثم صدق الرسل ثانياً.

عن الصدوق باسناده، عن ابي بصير قال: قلت لابي عبد الله عليه السلام لاي علّة اعطى الله عز وجل انبياءه ورسله واعطاكم المعجزة؟ فقال: لتكون دليلاً على صدق من اتى بها. والمعجزة علامة لله لا يعطيها الا انبياءه ورسله وحججه ليعرف به صدق الصادق من كذب الكاذب[1].

نستخلص مما تقدم ان من جملة الادلة علىٰ اثبات نبوة الانبياء هي حدوث الحوادث الخارقة للعادة، والتي يعجز عن اتيانها ذوي العقول واهل الفضل والعلم على مر الدهور.

ومما تجدر الاشارة اليه، في الموضوع هو انّ اذعان الناس كافة لتلك الحوادث الخارقة للعادة انما يحصل بعدما يقف العلم مكتوف الايدي تجاه تلك الحوادث، وعدم معرفته بعللها، وضوابطها المادية، لهذا ليس في وسع العلم انكار تلك الخوارق او ردّها او ابطالها، حيث هو قاصر وعاجز عن تبيان اسبابها، فمن باب اولى يثبت عجز العلم في ردّه للحوادث او ابطالها.

ثم ان المعجزة مقترنة بالارادة الالهية، وكما عرفت انها الوسيلة لاقناع البشر عندما تتعذر كل السبل المادية والوسائل العلمية، انذاك تكون الارادة الالهية والحتمية الربانية لنصرة الانبياء والمرسلين على المعاندين واهل الكفر وجحدة الحق.

وقد اشارت الآيات الكريمة الى هذه الارادة والنصرة والغلبة للانبياء منها قوله

---

(١) علل الشرائع ص ١٢٢، ط دار احياء التراث العربي. قال الصدوق، حدثنا علي بن احمد قال: حدثنا محمد بن ابي عبد الله عن موسى بن عمران عن عمه، عن علي بن ابي حمزة، عن ابي بصير... الحديث.

تعالى: ﴿انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾[2].

وقال تعالى: ﴿كتب الله لاغلبنّ انا ورسلي﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون﴾[4].

وقال تعالىٰ: ﴿حتى اذا استيأس الرسل وظنّوا انهم قد كُذّبوا جاءهم نصرنا﴾[5].

وقال تعالىٰ: ﴿ان ينصركم الله فلا غالب لكم﴾[6].

نستدل من الآيات الكريمة المتقدمة ان نصرة الله لانبيائه ورسله حتمية وانه عهد قطعه الله على نفسه، ﴿وعد الله حقاً ومن اصدق من الله قيلا﴾[7]. كما ان هذه النصرة لم تكن مقتصرة في الحياة الدنيا، بل انها نصرة مستمرة الى يوم القيامة يشهد لهم الملائكة والحفظة، وغيرهم من سكان السموات والارضين بصدق الرسالة واداء الامانة والتبليغ الجميل.

اما صور النصر فهي عديدة، منها خذلان الكفار واندحارهم في سوح القتال، ونصرة الانبياء بالقهر والغلبة، ومنها قذف الرعب في قلوب الاعداء، ومنها نصرتهم بالمعجزة والامور الغريبة التي يستمدّها الانبياء عليهم السلام من الله سبحانه وتعالى بعدما تكون نفوسهم في غاية الاستعداد والكمال لتلقي الحوادث الخارقة لمجريات الطبيعة، والتي هي فوق مقاييس العلل والمعلومات، بحيث لا تخضع لواحدة من تلكم القوانين العلمية التي درج عليها البشر منذ اقدم العصور.

---

(١) سورة المؤمن الآية ٥١.
(٢) سورة الفتح الآية ٣.
(٣) سورة المجادلة الآية ٢١.
(٤) سورة الصافات الآية ١٧٣.
(٥) سورة يوسف الآية ١١٠.
(٦) سورة آل عمران الآية ١٦٠.
(٧) سورة النساء الآية ١٢٢.

ثم ان جريان المعجزة على يد الانبياء والرسل انّما يحصل بعد انسداد الطرق الطبيعية امام الانبياء، وكما لو اعيتهم السبل المادية والوسائط العلمية في اقناع المجتمعات بما جاءوا به من السماء من شريعة وتعاليم.

فهذا نبي الله نـوح عليه السلام دعا قومه الى الله فلبث فيهم (٩٥٠) عاماً فلم يؤمن به الا القليل حتى اغرقهم سبحانه بالطوفان فكانت هي المعجزة الكبرى له، قوله تعالى: **﴿ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما فاخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾**(١).

وقوله تعالى: **﴿قال رب اني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي الا فرارا، واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم واصرّوا واستكبروا استكباراً، ثم انّي دعوتهم جهارا ثم انّي اعلنت لهم واسررت لهم اسرار. . . ﴾**(٢).

وهكـذا بالنسبـة الى ابراهيم عليه السلام ومـوسى وعيسى والرسـول محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فالمعجزة بمثابة الكيء للداء وهو آخر الدواء.

لمّـا عرفت ان الارادة الالهيـة هي الاساس في اظهـار المعجزة، او الكـرامة على يد الانبياء والاوليـاء والصالحين، بقي لـدينا ان نعـرف كيف يكون ظهـورها، وهل هي بمعزل عن قانون السببية او العلية؟

من الواضح ان الامور العادية التي تسالم عليها ابناء البشر كلها تستند الى اسباب طبيعية وحقيقية، من خلال قوانين اعتبرت اصـولاً لها، فهي تجـري وفق السنن التي اودعها الله سبحانه في هذا الكون، فالاشياء بحدوثها وكونها معلولات لا بد ان تسبقها علل، وقد تسالم الناس على قاعدة عرفها الاباء والاجداد منذ اقدم العصور، ان الامور تجري باسبابها، وهذه الاسباب مرة يعرفها الناس، كما لو القينا حزمة الحطب في النار، فبحكم الملازمة يكون الاحتراق، وكما لو مسكنا المفتاح

---

(١) سورة العنكبوت الآية ١٤.

(٢) سورة نوح الآيات ٥ ـ ٩.

لنضعه في القفل لنعمل به ارادتنا الجديّة لفتحه، وكما لو نزل المطر كان الانبات. . الى ما شاكل ذلك، فألقاء الحطب في النار مقدمة للاحتراق وسبب له، وحركة اليد بالمفتاح مقدمة وسبب الفتح، ونزول المطر مقدمة وسبب للانبات، فهذه المعلولات ملازمة لعللها، تدور مدارها وتنعدم بعدمها. والمتيقَن ان تلك الاسباب ظاهرة للحس البشري، ويتعقلها الانسان بمجرد ادنى ثقافة يمتلكها فيعرفها على وجهها الحقيقي. ومرة لا يعرف الانسان تلك الاسباب بعينها، الا انه لا ينكر نتائجها، كما انه لا يرفض ما لو كانت لها اسباب قد خفيت عليه او تعذر لتفكيره من تشخيصها في الخارج.

ثم هذه الحوادث والامور العادية لا بد ان تخضع الى القدرة الالهية والمشيئة الربانية وان كانت ظاهرا الارادة الجدية صادرة في بادىء الامر من العبد، الا ان وراءها ارادة اعلى ومشيئة اكبر الا وهي مشيئة الله سبحانه وتعالى، والقرآن الكريم يصرّح بذلك في آيات عديدة منها قوله تعالى: **﴿وما تشاؤن الا أن يشاء الله ربّ العالمين﴾**[1] وقوله تعالى: **﴿انّما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون﴾**[2]. وقوله تعالى: **﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير﴾**[3]. وقوله تعالى: **﴿ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء. .﴾**[4].

الى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تنص على ان فوق كل ارادة ومشيئة ارادة سماوية ومشيئة إلٰهية، فمع تلك الاسباب الظاهرية والعلل الخارجية والارادة البشرية هناك ارادة إآلهية، والا بدونها لا يمكن حدوث الأمر او تحقق المراد وبهذا العرض يتضح قوله تعالى من الآيات السابقة: **﴿انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون﴾**[5]. وقوله تعالى: **﴿واذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون﴾**[6].

---

(١) سورة التكوير الآية ٢٧. وسورة الانسان الآية ٣٠.
(٢) سورة يس الآية ٨٢.
(٣) سورة آل عمران الآية ٢٦.
(٤) سورة الاعراف الآية ١٥٥.
(٥) سورة يس الآية ٨٢.
(٦) سورة البقرة الآية ١١٧.

وقوله تعالى: ﴿انما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون﴾[1].

فمتى ما تحققت ارادتنا قلنا هي ارادة الله سبحانه لنا، ومشيئته سبحانه فينا، فارادة الانسان وقتئذ متوقفة على ارادة الله جل شأنه، ومشيئته.

هذا بالنسبة للامور العادية، وما يوافق مسيرة الاحداث بعللها المادية، واسبابها الطبيعية.

المعجزة - كما عرفت - هي القوة الخارقة لقوانين الطبيعة ووسائلها الماديّة، إلّا انّها لا تخرج عن كونها قانون خاصاً ابدعه الله سبحانه، فهي تجري وفق قانون إلهي، غير ان هذا قانوناً قد استأثره الله لنفسه، واخفىٰ على الناس اسبابه، فالمعجزة لا يمكن جعلها فنّاً من الفنون، أو علماً من العلوم، بحيث يهتمّ الدارسون بمبادئها واسسها ومقدماتها الذاتية، . . بل كل ذلك متعذّر علىٰ الباحث، والعالم، وبهذا لم يبق امامنا سوى التعرف علىٰ دواعي ظهورها واثرها في الفرد والمجتمع. وبالنتيجة تبقى المعجزة خارجة عن تصوّر البشر وادراكهم العقلي.

الاختلاف بين المعجزة والحوادث العادية

اما المعجزة، فهي تختلف كل الاختلاف عن الحوادث العادية وبينها فوارق عديدة منها:

اولاً: ان الاسباب المحتّمة للمعجزة لا تخضع لقوانين الحياة المحسوسة ووسائلها المادية، لذا تقف عقول العلماء عندها وقفة تأمل وحيرة، ناهيك ان عوام الناس والسذج منهم، والمعجزات من هذا القبيل كثيرة كما ذكرها القرآن الكريم ضمن رسالات الانبياء عليهم السلام وذلك كالذي حدث للنبي ابراهيم خليل الله عليه السلام عندما القي في النار من قبل النمرود، وكالذي حدث للنبي موسى كليم الله عليه السلام في اثنتي عشرة معجزة جاء بها لبني اسرائيل منها العصا تلقف ما يأفكون، واليد البيضاء، وفلق البحر، واغراق فرعون، ونزول المنّ والسلوىٰ، وتفجير العيون. . . الخ.

---

(1) سورة النحل الآية ٤٠.

ثانياً: من اسباب وقوع المعجزة هو تحدّيه سبحانه وتعالى للمعاندين وجحدة الحق، وموارده في القرآن عديدة، منها كالذي يحكيه الذكر الحكيم عن تحدّيه لقريش:

﴿وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين﴾[1].

وقوله تعالى: **﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾**[2].

وقوله تعالى: **﴿ام يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين﴾**[3].

وقوله تعالى: **﴿ام يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين﴾**[4].

ثالثاً: ومن اسباب وقوع المعجزة، هو نصرة الانبياء والرسل على طواغيت زمانهم واهلاك اعدائهم، كانفلاق البحر لموسى عليه السلام واغراق فرعون وجنوده لما طغى في الارض وقال انا ربكم الاعلى..

قوله تعالى: **﴿فلما تراء الجمعان قال اصحاب موسى انا لمدركون قال كلا ان معي ربي سيهدين، فاوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وازلفنا ثم الآخرين، وانجينا موسى ومن معه اجمعين، ثم اغرقنا الآخرين﴾**[5].

وقوله تعالى: **﴿ولقد أوحينا الى موسى ان اسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً**

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣.
(٢) سورة الاسراء الآية ٨٨.
(٣) سورة يونس الآية ٣٨.
(٤) سورة هود الآية ١٣.
(٥) سورة الشعراء الآيات ٦١ - ٦٤.

في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى فاتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾[1].

رابعاً: ومن اسباب وقوع المعجزة هو تصديق الانبياء على دعواهم في حمل الرسالة وتبليغها الى البشر، والدعوى الى الله سبحانه تستوجب التأييد منه جل وعلا في جميع مراحل التبشير، وربما كانت المعجزة بعد طلب يسبقها ممن يريد اتباع النبي عليه السلام.

ومثاله ما جاء في القرآن الكريم عن النصارى اذ طلبوا من المسيح عليه السلام ان تنزل مائدة عليهم من السماء، قوله تعالى: **﴿واذ اوحيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد باننا مسلمون، اذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين. قالوا نريد ان نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى ابن مريم اللهم ربّنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لاولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وانت خير الرازقين. قال الله انّي منزلها عليكم... ﴾**[2].

وربما كانت المعجزة لتصديق الانبياء عليهم السلام على دعواهم بعد مرحلة استهزاء القوم بالرسل والسخرية بهم، مثاله كما ورد في الذكر العزيز في قصة ثمود والنبي صالح عليه السلام:

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم اتعلمون ان صالحاً مرسل من ربه قالوا إنّا بما ارسل به مؤمنون. قال الذين استكبروا إنّا بالذي آمنتم به كافرون. فعقروا الناقة وعتوا عن امر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين. فاخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين﴾[3].

---

(١) سورة طه الآية ٧٧.

(٢) سورة المائدة الآيات ١١١ ـ ١١٥.

(٣) سورة الاعراف الآيات ٧٥ ـ ٧٨.

وهكذا بالنسبة الى قصة نوح عليه السلام مع قومه، وقصة هود مع عاد، وقصة لوط مع قومه اذ كانوا يأتون الرجال شهوة دون النساء، وكذا قصة شعيب مع مدين اذ كانوا يبخسون الناس اشياءهم في الكيل والميزان، وفي كل ذلك يتحدث عنه القرآن المجيد: **﴿فكلا اخذنا بذنبه فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من اغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون﴾**(1).

خامساً: ومن اسباب وقوع المعجزة، هو اتمام الحجة على الكفار وتحذيرهم من الخسران المبين وسوء المنقلب، كما هو في شأن النصارى ونزول المائدة عليهم من السماء، قال تعالى: **﴿قال الله اني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فاني اعذبه عذاباً لا اعذبه احداً من العالمين﴾**(2).

سادساً: ومن اسباب وقوع المعجزة، هو اظهار قدرة الله سبحانه للانبياء انفسهم حتى يطمئنّوا لها ويكون علمهم عن مشاهدة، ويقينهم عن رؤية، وان كان تسليمهم الى الحق هو عن ضرورة، الا ان المشاهدة مرتبة اخرى بها يحصل الاطمئنان الكلي. وهذا ما حدث بالنسبة للنبي ابراهيم عليه السلام قوله تعالى: **﴿وإذ قال ابراهيم ربِّ أرني كيف تُحي الموتى قال أوَلَمْ تؤمن قال بلىٰ ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ اربعة من الطير فصرَهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزء ثم ادعهن ياتينك سعياً واعلم ان الله عزيز حكيم﴾**(3).

وكذا بالنسبة (لارميا) عندما اراد ان يرى مشاهدة القرية التي مر عليها فوجدها خاوية على عروشها، وربما الذي تمنى تلك المشاهدة (عزير) وقيل (الخضر)* ومهما يكن فسبحانه استجاب له كي يطمئن قلبه، وذلك قوله تعالى:

﴿او كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال انّىٰ يحيى هذه الله

---

(1) سورة العنكبوت الآية ٤٠.

(2) سورة المائدة الآية ١١٥.

(3) سورة البقرة الآية ٢٦٠.

(*) مجمع البيان ١/٣٧٠.

بعد موتها فاماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما او بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر الى حمارك لنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال اعلم ان الله على كل شيء قدير﴾[1].

هذه جملة من الامور المدعاة لظهور المعجزة على يد الانبياء عليهم السلام، في حيال الدعوة الى الله سبحانه وتعالى، وانقاذ الامم من مهالك الضلال والخسران.

على يد من تظهر المعجزة...؟

اذا عرفنا هذا القدر القليل في اصل المعجزة، بقي لدينا الاشارة الى من تظهر على يديه المعجزة فيكون بمثابة الواسطة بين الخالق والمخلوق..

الوسيط بين البشر وخالقهم الا وهو النبي عليه السلام، الذي اختاره الله سبحانه لتبليغ رسالته وشريعته الى العباد فهو مبشر ونذير ثم من بعد شاهدٌ عليهم. قوله تعالى: ﴿انا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين﴾[3].

ولا يخفى ان النبي هو كسائر البشر من حيث المركبات والاحاسيس والمشاعر، إلّا انه يسمو عن عالم المادة والدنيا الدنيئة، فيرتفع عن زخرفها بتهذيب نفسه الطاهرة ورياضتها بفنون الطاعة والمعرفة الحقة وتنزيه ساحة الخالق من كل ما يتقوله الجاهلون او ينعته الواصفون ويتلفظ به المترفون..

ومع ذلك ان الله سبحانه اجرى المعجزة واظهرها عند اقتضائها على يد انبيائه عليهم السلام فآمن بها من آمن عن بينة، وهلك من هلك.

ولو دققنا في مقولة الجاحدين وانكارهم لنبوة الانبياء، بزعمهم ان هؤلاء بشر

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٩.

(٢) سورة الفتح الآية ٨.

(٣) سورة الانعام الآية ٤٨.

مثلنا، واي فرق بيننا وبينهم؟ لعرفنا ان انكارهم على الانبياء ذاك انما كان لجهلهم بحقيقة الرسالة والرسول، ولجهلهم بحقيقة النفس وخلوصها وتهذيبها ومعرفتها الحقة بربّها.

فمن اليقين الواضح والبرهان القاطع ان نفوس الانبياء هي غير باقي النفوس من حيث التهذيب والصفاء وارتفاعها عن عالم المادة ونحوها الى عالم المعرفة والطهارة..

اذن فالانبياء عليهم السلام ما نالوا تلك المرتبة والمنزلة عند الله سبحانه إلّا بمعرفتهم الحقة للنفس البشرية وتضائلها امام عظمة خالقها الذي يتصاغر - عندها - كل شيء في الوجود لهذا كانت معرفة النفس هي مقدمة لمعرفة الله جل شأنه.

بين الرياضة وعرفان النفس

الرياضة والمجاهدة لمقاصد متنوعة هي غير عرفان النفس، علىٰ أن تلك الرياضات والمجاهدات، انما اصولها - لو دققنا النظر - ترجع الى الاديان، والاديان كلها تنادي بفكرة التوحيد، التي فطر سبحانه وتعالىٰ عباده عليها، وانّما اختلفت العقائد والمسالك، بعدما تلوّثت تلك الفطرة بتعصبات ورثها البشر من سالف الاجداد، وغابر الازمان، فحصل الانحراف في عقائد الناس، وذهب كل فريق الى هواه عندما تحكمت فيهم المادية، وتسافل الانسان حتى تجرّأ على مولاه، وهكذا حتى وصل الامر الى جحود الخالق.

فكما عرفت ان الدين ملازم للفطرة، وبعبارة اخرى ان فكرة التوحيد لا تنفك عن الانسان السوي، فالانسان كلّما اسبر الغور في اعماق نفسه حصل علىٰ اليقين المتزايد بخالقه من جهة، وتصاغرت نفسه امام هذا الخالق العظيم من جهة ثانية، وتألّقت نفسه بخالقها تألقاً شديداً لكونها في أمَسّ الحاجة، بل ومفتقرة الى خالقها في كل آنٍ من جهة ثالثة. لهذا فان عرفان النفس يوصل الانسان الى السعادة الابدية الا وهي معرفة الله سبحانه فايّ تحرك، واي سلوك، واي مجاهدة، اذا كانت خارجة عن اطار التوحيد فهي باطلة، وقلْ اي طريقة خارجة عن اطار الاسلام - وهو دين التوحيد - فهي طريقة مغلوطة، وآثارها ليست هي نتائج حقيقية قابلة للإتباع.

ثم الاسلام أوجد طريقاً نزيهاً لتهذيب النفس وعرفانها، بعيداً عن كل الغائيات المبتذلة، والمقاصد المادية، وقد تجسّد ذلك الطريق بسيرة، أهل البيت عليهم السلام، وسلوكهم الى الله سبحانه، وهكذا اتبعهم الاولياء، والنخبة الصالحة من المؤمنين، خلال هذه القرون الماضية، فازدهرت الارض بعلومهم، وصلح الزمان بتقديسهم لبارئهم، واحبّهم الناس لصدقهم في ايمانهم، واخلاصهم في عبادتهم.

بهذا البيان نعرف منزلة الاولياء والصلحاء والاتقياء من الناس الذين ظهرت لهم كرامات ومناقب في حياتهم وبعد مماتهم، وهكذا يمكن معرفة اهل الرياضات، واهل العرفان في الكرامات التي جرت على ايديهم، من انكشاف بعض الحقائق لهم والتنبوءات الصادقة ومعرفتهم لبعض الخفايا واستجواب مسائلها، وذلك يتم لهم بالهام او فيوضات إلّهية، فلا غرابة لو استجيبت دعوة لهم، او النهوض بالأمر العسير، او الاتيان بما هو ذو بال بحيث يعجز غيرهم من الناس العاديين ان يأتوا بمثله كطي الأرض لهم او استنطاق الموتى واشباهه.

لا عجب في الأمر، عندما يسلك المؤمن الى الله ابتغاء مرضاته سبحانه، فلا بد من مسيرة حثيثة يراقب بها العبد نفسه، ليصونها من الهفوات والهنات، بل لا بد من صونها عن كل فضول وميول، واهواء، فزهد العبد لا بالمأكل والملبس، بل زهده عما حرّمه الله عليه، وهذا لون من الوان التقرب الى ساحة الجليل، وكم رسم لنا اهل العرفان المسالك والطرق الى الله جل اسمه فجعلوها دروساً ناصعة من خلال السيرة التكاملية لنفوسهم.. وكم جاهدوا برياضاتهم حتى توصّلوا الى معرفة النفس ـ فذابت بل تلاشت كلمة (الانا) من قاموس عرفانهم مع زهو الدنيا ولذاتها التي انبهر فيها من كل جيل طائفة كبيرة من الناس...؟!

انهم تمسكوا بالسبل المفضية الى معرفة الحق المطلق الذي هو غاية العارفين واملهم وبه ينتهي اليه السالكون، واليه مصير المخلوقين ﴿**يا أيّها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه**﴾[1].

---

(١) سورة الانشقاق الآية ٦.

ولا غرابة لو رأينا ان المجتمعات والامم السابقة كانت تسخر من انبيائها وتهزأ مما جاءوا اليهم من الدعوة الى توحيد الله سبحانه، وتنزيهه من كل ما لا يليق بساحته سبحانه، فكم من امّة طالبت نبيّها باشياء تعجيزية وتعنّتاً..؟!

انظر الى تلك الاجيال السالفة كيف خاطبت الانبياء:

﴿واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾(1).

﴿ان الله عهد الينا الاّ نؤمن لرسول حتى ياتينا بقربان﴾(2).

﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجّر لنا من الارض ينبوعاً﴾(3).

﴿ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾(4).

﴿فاسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين﴾(5).

وهكذا آيات كثيرة في ذلك، فما كان جواب الانبياء عليهم السلام لهم الا ان:

﴿قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم﴾(6).

﴿قل انّما انا بشر مثلكم يوحى الي انّما الٰهكم إله واحد﴾(7).

ومع كل ذلك فقد عتوا عتواً شديداً وعادوا في غيّهم وانكروا رسالة الانبياء بقولهم: **﴿ما هذا الا بشرٌ مثلكم يريد ان يتفضّل عليكم﴾**(8).

﴿وما انت الا بشر مثلنا فأتِ بآية ان كنت من الصادقين﴾(9).

(1) سورة البقرة الآية ٥٥.
(2) سورة آل عمران الآية ١٨٣.
(3) سورة الاسراء الآية ٩٠.
(4) سورة الاسراء الآية ٩٣.
(5) سورة الشعراء الآية ١٨٧.
(6) سورة ابراهيم الآية ١١.
(7) سورة الكهف الآية ١١٠.
(8) سورة المؤمنون الآية ٢٤.
(9) سورة الشعراء الآية ١٥٤.

﴿وما انت الا بشر مثلنا وان نظنّك لمن الكاذبين﴾[1].

﴿فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولّوا واستغنى الله..﴾[2].

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشراً مثلنا..﴾[3].

﴿وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا ابعث الله بشرا رسولاً﴾[4].

مما تقدم تعرف ان في الجامعة البشرية صنفين من الناس، الصنف الاول الذي سلك طريقاً الى الله سبحانه بعدما عرفه حق المعرفة. والصنف الثاني الذي جحد الخالق ورفض نبوة الانبياء وسلك طريق الشيطان لاتباع هواه. ولا حديث لنا في هذا الصنف، بل انما حديثنا سوف نقتصره على الصنف الاول لما لديهم من منزلة وكرامة عند الله جل شأنه حتى اصبحوا من اوليائه وقد جرت الكرامات على ايديهم فسارت به الركبان وذاع صيتهم في الافاق.

اقول فما هي الطرق الموصلة لهؤلاء الاولياء؟ واي كرامة لهم عند الله سبحانه؟

أهمّ طريق للوصول الى السعادة الابدية والتي تعني القرب من الله سبحانه، ورضاه هو ان يبدأ الانسان بمعرفة نفسه اولا وعدم الغفلة عنها كي لا تقع في شرك الضلال وحبائل الشيطان، قال تعالى: ﴿يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانساهم انفسهم اولئك هم الفاسقون...﴾[5].

فالذي نسى الله بمعنى نفسه قد نساها، وغفل عما يصلحها، اذن مقدمة معرفة الله جلّ شأنه هو معرفة النفس واصلاح شأنها وحمل الزاد لها بالتقوى.

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٨٦.
(٢) سورة التغابن الآية ٦.
(٣) سورة هود الآية ٢٧.
(٤) سورة الاسراء الآية ٩٤.
(٥) سورة الحشر الآية ٢٠.

وقد اشتهر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: من عرف نفسه فقد عرف ربّه[1]، اذن موضوع التزكية هي النفس، وهي المعنية في اصلاحها وسمّوها وهي الوسيطة في فلاحها او خيبتها، حيث قال سبحانه: ﴿**ونفس وما سوّاها فالهمها فجورها وتقواها، قد افلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها**﴾[2].

وقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: أعْرفكم بنفسه اعرفكم بربّه[3].

وعن امير المؤمنين عليه السلام: اكثر الناس معرفة لنفسه اخوفهم لربّه[4].

وعنه ايضاً: «غاية المعرفة ان يعرف المرء نفسه»[5].

وعنه عليه السلام: «من عرف نفسه تجرّد»[6] اي تجرّد عن شوائب الحياة ورذائلها وتعلّق بمبدأ الاخلاص الى الله سبحانه.

وعنه عليه السلام: قال: «الفوز الاكبر من ظفر بمعرفة النفس» وقال عليه السلام: «من لم يعرف نفسه بَعُدَ من سبيل النجاة، وخبط في الضلال والجهالات...»[7].

مما تقدم نستنتج ان الطريق الى الله جلّ شانه هو معرفة النفس اوّلاً، كما اسلفنا، لهذا اكد أهل الرياضات ـ ومنذ آلاف السنين ـ على مسلك التجريد، وترويض النفس على الطاعات، وجفاء الحياة وزينتها، والسلوك الى معرفة الله سبحانه بالاشتغال في التهذيب والانقطاع الى بارئها بالاصحار في اعماق هذه النفس الفقيرة الى كل شيء، فلو لا خالقها لما كانت لها حول ولا قوة، فالبصير الخبير الذي يسبر الغور في كل اطوار هذه النفس ومراحلها ومبدأ فقرها وكيفية تكاملها وعناصر قوامها وحقيقة وجودها ومنتهى امرها.

---

(١) غرر الحكم ٦٢٥.
(٢) سورة الشمس الآية ١٠.
(٣) غرر الحكم.
(٤) المصدر السابق.
(٥) غرر الحكم ٥٠٤.
(٦) غرر الحكم ٧٠٦.
(٧) غرر الحكم ٦١٩.

وهذا المسلك ليس من مختصّات المسلمين فحسب، بل هو مسلك عرفه الكثير من اصحاب الاديان والمعتقدات كاليهود والنصارى والصابئة بل عرفه حتى الوثنيّون كالبراهما والبوذيين وعبدة الاصنام واهل الملل.

البراهما وتزكية النفس

واليوم نجد ثلّة من تلك الاقسام مقتفية آثار سلفهم من اصحاب المسالك والرياضات، فمثلاً البراهما المتواجدون في شبه القارة الهندية وباعداد غفيرة والذي يسمّون بالمرتاضين، قد روّضوا انفسهم على مسلك الزهد في الحياة وان كانوا في الحقيقة لا يقرّون مبدأ التوحيد والنبوة، الا ان مسلكهم قد افاض عليهم شيئاً من التسخير واحضار الارواح، والبعض قد سلك طريق السحر والشعوذة.

الا ان البراهما لهم طريقة في تزكية النفس، فالواحد منهم يمر بأربعة مراحل من سنين عمره وهي كالتقسيم الآتي:

المرحلة الاولى: من سن ٨ ـ ٢٥.

المرحلة الثانية: من سن ٢٥ ـ ٥٠.

المرحلة الثالثة: من سن ٥٠ ـ ٧٥.

المرحلة الرابعة: من سن ٧٥ حتى آخر عمره.

ففي كل مرحلة من هذه المراحل الاربعة رياضة خاصة قد اهتم بها جمع من كبار البراهما، فعند بلوغ احدهم السن الثامنة من عمره يجتمع اليه البراهما ليعلموه الواجبات المكلف بها ويشيرون اليه بجملة من الوصايا التي لا بدّ من الالتزام بها.

وبعدها تبدأ المرحلة الاولى والتي تنتهي عندما يبلغ السنّ الخامسة والعشرين. من مقررات هذه الفترة اظهار الاستعداد الكامل لتلقّي الوصايا والتعليمات الدينية والروحية ولا بدّ ان يلتزم استاذاً يعلّمه الطريقة الخاصة والزهد في الدنيا وترك الملذّات وتحريم اكل اللحوم، وصوم يوم وافطار يوم آخر، ثم الاغتسال ثلاث مرات في اليوم الواحد كما لو كان بالقرب من النهر المقدس الذي يسمى بنهر «گنگا» والآخر يسمى نهر «جامنا» ولا بدّ ان يصنع له ناراً ليقدّم لها قرباناً

في آخر النهار، وبعد ذلك يسجد لاستاذه تعظيماً له حين اسدى الكثير من النصح والتعليم له. ثم لا بد من ملازمة استاذه، فهو يمكث معه، ويخرج للسؤال والكدية حتى يجمع له من النقود والعينات والارزاق فيقدّمه جميعاً لاستاذه ليختار منه ما يشاء ويتفضّل عليه بالباقي. وهكذا تجده لا يفارق استاذه في سفر ولافي حضر، وهؤلاء ليس لهم مأوى ولا سكن يلتجؤون اليه بل فراشهم الارض وغطاءهم السماء كما هو الظاهر من معتقداتهم، وهم ينتشرون في مدينة (بنارس) من (يوبي) الهند مركز الوثنية، وفيها مختلف الطوائف من عبادة الاصنام والتماثيل..

بعد هذه المرحلة، وعندما ينهي البراهمن من عمره خمسا وعشرين سنة، تبدأ المرحلة الثانية حين يأذن له الاستاذ بالتأهّل طلباً للنسل والذرية[1].

في هذه الفترة توجد لديهم اذكار ورياضات خاصة حتى مع الزوجة، وطقوس عبادية يتعاهد عليها مدة خمس وعشرين سنة، كما أن البراهمن لا يستغني من توجيهات استاذه او المرشد فيلتقي به على الدوام ليستفيض من تعاليمه وارشاداته، وهو الابن الروحي المطيع غاية الطاعة الى استاذه فيسمح له وينتهي بنواهيه، كما ان من حق الاستاذ ان يستخدم الزواجر لمريده. ويبقى المريد هكذا حتى تنقضي الفترة المخصوصة ببلوغه (٥٠) عاماً من عمره. حيث تبدأ المرحلة الثالثة والتي من اهم التعاليم فيها ان يعتزل عن الاولاد والحياة ويتّجه الى الصحاري والقفار والجبال، وينأى عن البشر ويتّخذ اسلوب الانقطاع وترك الملذات والشهوات فلا يتزّود من الاكل والشرب الا ما يسد به رمق الحياة، وحتى اواصر الرحم تنقطع بينه وبين أولاده وذريته وكأنما هم غرباء عليه، فهو لا يفكّر بأكثر من انقاذ نفسه وخلوصها من درن الحياة وقذارتها.

فتراه لا يأكل اللحم ولا يلبس الجميل من القماش واللباس إلا ما يواري عورته وغالباً ما يرتدي اللون الأحمر، ولا يستظل تحت سقف، ولا يفكر ان يشبع بطنه، بل يأخذ ما يسد رمقه. هكذا يسلك حتى يشرف على الخامسة والسبعين وبها

---

(١) هناك طقوس خاصة في مراسم العقد والزواج والتشريفات الخاصة اعرضنا عن ذكرها خوف الاطالة.

تبدأ: **المرحلة الرابعة** وهي ما بين الخامسة والسبعين آلى نهاية العمر الذي ينقضي بالموت وحلول الروح في احد ابدان الحيوانات.

تمتاز هذه المرحلة عن سوابقها بانها المرحلة العليا في الرياضة ويُعدّ الفرد فيها احد الاساتذة ورائد في الطريقة والزهد والرياضة، فيلبس الاحمر من الرداء، ويحمل معه قضيباً وخيزران وينفرد بنفسه، ولا يصحب احداً قط، ويطيل في شعر رأسه ووجهه، ويقبل على الرياضة ليل نهار، ويجرد القلب من كل لذيذ، فلا يأنس إلّا بالوحدة، ولا يشغله الا الفكر وتجريد النفس من الهوى والميول والصداقه والعداوة والحب والبغض[1].

هذا لون من اهل الرياضة، ممّن لا يقرّ بدين، ولا يعترف بنبوه نبي مرسل، ولا يقبل التوحيد بمعناه الحقيقي الذي نفهمه نحن المسلمين، وان الرياضات التي سلكوها بنيت اسسها على الوهم والخطأ، ولكن مع ذلك تملك الانسان ـ من خلالها ـ السلطة ذات الأثر في ترويض النفس، حتى وجد آثار الترويض من خلال التسخير وعمل الزيجات وحل الطلاسم وعقد العزائم وارسال الموكلين وانتداب الجن وغير ذلك من الامور التي هي جزء من آثار بعض الترويض..

نعود، فنقول مجاهدة النفس كانت منذ اقدم العصور، وصاحب الانسان عملية التهذيب منذ ان عرف الخطيئة او الذنب الاّ ان هذا السلوك كان خاصاً لقلّة من الناس، فكان دور الشرائع السماوية، ومهمة الانبياء بعود الحياة الى اولئك ـ وغيرهم ـ بالسلوك الصحيح الى الله جل شأنه، واصلاح نفوس اناس آخرين ليدينوا بمبدأ التوحيد الخالص والعبودية الكاملة لخالقهم لا غير...

وقد اقتفى اثرُ الانبياء الاوصياء والصلحاء، فكانت بين ظهراني الناس ثلّة منهم يصلحون شأنهم ويهذّبون نفوسهم للوصول الى حياة فيها تعمّ السعادة الابدية والخلود في نعيم الآخرة.

ولا يخفى ان الذين سلكوا الطرق الضالة، كبعض من منتحلى الاسلام،

---

(١) تفسير الميزان ١٨٢/٦.

واصحاب الطرق المنحرفة، وهكذا من نصارى، ويهود، وصابئه، وغيرهم من وثنيين؛ كالبرهميّة والبوذيه، وامثالهم، انما حصلوا على جملة من الآثار بالمجاهدة والرياضة، على ان مسالكهم في نظر الشريعة الاسلامية ـ وبالخصوص بمنظار اهل البيت (عليهم السلام) ـ هي مسالك خاطئة، وطرق مغلوطة، واوهام تخيّلها اصحابها بانها عين الحقيقة، وسر الوجود وغاية السالك..

والسبب في انها طرق مغلوطة وليس هي الهدف الذي من اجله كان الانسان.. انما يكمن في هذا التقريب:

ان المشتغلين بتهذيب النفس سابقاً كانت غايتهم لا تخرج عن احد امرين:

اولاً: اما ان تكون غايتهم من الاشتغال بعرفان النفس وتهذيبها هو لإحراز شيء من آثار النفس الغريبة والتي لا يهتدي اليها الآخرون ولا الى اسبابها المادية، وهذا من اصله باطل، بل ربما صادف المخالفة القطعية والحرام الواقعي، امثال اهل السحر واصحاب العزائم والطلسمات، واهل التسخير للارواح واحضارها والتنويم المغناطيسي واشباه ذلك.

ثانياً: واما ان تكون غاية اولئك المشتغلين بعرفان النفس هو التعمّق في جوهر النفس بالانصراف من آثارها الخارجية الى كنهها ومشاهدة علائقها والتلذذ بالانقطاع من الحياة المادية الى حياة العزلة، بمعانيها السلبية.

وهذا اللون من العرفان او الإنقطاع في تهذيب النفس ايضاً باطل، ليس فيه مرضات الله سبحانه، لانه يكون مدعاة لتعطيل الحياة بكل صورها واندثار الحضارة وموتها وانتكاس المدنية ومعالم الدين، ومن ثم لا يبقى للدين سوى الاسم والمجتمع سوى الرسم، وبهذا يتحكّم الجهل ويعطّل العقل وتخرب الديار.. والصوفية ينتمون الى هذه الغاية وينتهون اليها، وقد نهى الشارع المقدس عنها حيث قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «لا رهبانية في الاسلام».

ثم حتّى الرهبانية التي كانت عند النصارى قد ذمّها سبحانه ففي الذكر الحكيم: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق

رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم اجرهم وكثير منهم فاسقون﴾[1].

ثم اولئك الرهبان واصحاب الطرق اصبحوا فيما بعد ارباباً للهمج الرعاع فإتّبعهم الجهال واهل الزيغ والباطل: **﴿اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله﴾**[2].

بل ان القرآن الكريم يصف الرهبان والاحبار بأنهم ممن يأكل أموال الناس بالباطل، قوله تعالى: **﴿يا ايها الذين آمنوا ان كثيراً من الاحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل ويصّدون عن سبيل الله و...﴾**[3].

اذن هكذا رهبانية لا خير فيها بل محرّمة كما اتضح لك من سياق الآيات بل لا رهبانية في الاسلام. وانّما في الاسلام الحياة العملية وروح المثابرة والجد والمجاهدة بل ان الاسلام دين الحياة والازدهار والحضارة والرقي، دين الفطرة..

اذن ما هو الطريق الصحيح الذي يسلكه الانسان حتى تكون آثاره في رضى الله سبحانه؟

من عرف سيرة اهل البيت (عليهم السلام)، عرف الطريق الصحيح الذي سلكوه، والمنهج الذي رسموه للآخرين، فهم المدرسة الفاضلة، والفطرة السليمة، كما ان الدين السليم يقود الى الفطرة الانسانية الاولى التي اودعها خالقها في نفوس البشر: **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله...﴾**[4].

كما ان الفطرة الانسانية تقود الى الزهد في الحياة بالمعنى الخالص لا بمعنى الهوس والتسكع والخمول، لان الزهد لا يعني ان لا تملك شيئاً، بل ان لا يملكك شيء.

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٧.
(٢) سورة التوبة الآية ٣١.
(٣) سورة التوبة الآية ٣٤.
(٤) سورة الروم الآية ٣٠.

اهل البيت وتهذيب النفس

الفطرة الانسانية التي تقود الفرد الى الزهد في الحياة هي التي تقوده الى العرفان الصحيح حيث معرفة النفس، ومن عرف نفسه عرف ربّه..

ولنسأل ما هو طريق اهل البيت (عليهم السّلام) في تهذيب النفس؟ وكيف الوصول الى ذاك الطريق الذي لا عوج فيه...؟

لا يخفى لمن استحضر سيرتهم انه سيجد وسائل المعرفة امامه واضحة ناصعة وهداهم هو الهدى فكم من آية كريمة اشارت الى هديهم وهُداهم، وانهم باب الله المأتي، والحبل المتين، والعروة الوثقى، والنبأ العظيم، وسفينة النجاة يأمَنُ مَنْ ركبها ويهلك من تخلّف عنها..

اذن فَلِمَ لا نتمسك بهم ونقتفي آثارهم؟!

ـ لقد اخلصوا لله حتى اشار اليهم القرآن الكريم انهم عبادك المخلَصون..

ـ عبدوه لا طمعاً في جنة ولا خوفاً من نار وانّما وجدوه اهلاً للعبادة..

ـ هجروا الدنيا لانها دار زوال وليس دار قرار كما يشير الى ذلك امير المؤمنين (عليه السلام): «والدنيا دارٌ مُني لها الفناء، ولاهلها منها الجلاء...»[1].

ـ اتقوا الله حق تقاته، فاصبحت لهم وِساماً وكذلك لاصحابهم، وقد اشار امير المؤمنين عليه السلام: الى صفات اولئك المتّقين عندما سأله (همام) احد اصحابه ان يصفهم له فقال عليه السلام: «... فالمتقون فيها هم اهل الفضائل: منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع. غضّوا ابصارهم مما حرم الله عليهم، ووقفوا اسماعهم على العلم النافع لهم.

---

(١) نهج البلاغة ـ الخطبة (٤٥) في ذم الدنيا /ص ٨٥.

وفيها يقول عليه السلام: «وهي حلوة خضراء، وقد عجلت للطالب والتبست بقلب الناظر فارتحلوا منها باحسن ما بحضرتكم من الزاد، ولا تسألوا فيها فوق الكفاف، ولا تطلبوا منها اكثر من البلاغ.

نزلت انفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء، ولولا الاجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر ارواحهم في اجسادهم طرفة عين، شوقاً الى الثواب، وخوفاً من العقاب. عَظُمَ الخالق في انفسهم فصغر ما دونه في اعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها فهُمْ فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذّبون، قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة، واجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وانفسهم عفيفة... الخ[1] ولما انتهى امير المؤمنين علي عليه السلام من خطبته صعق همام صعقة كانت نفسه فيها ففارق الحياة رضي الله عنه فقال امير المؤمنين عليه السلام: اما والله لقد كنت اخافها عليه. ثم قال: أهكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها؟

هذه نبذة مختصرة من خط ومنهجية اهل البيت عليهم السلام، فلا غرابة ان يخصّهم الله سبحانه بكرامات عديدة، في حياتهم وبعد مماتهم.

المؤمن له كرامة عند الله فكيف لو كان وليّاً من اوليائه..

المؤمن تفتخر به الملائكة، بل الله سبحانه يباهي به ملائكته وسكان سماواته واهل الارض، فكيف لو كان خليفة الله في ارضه وحجته البالغة وحبل الله المتين المتدلى من السماء الى الارض...؟!

فعطاء المؤمن من دنياه لعمارة آخرته كم هي عظيمة عند ربه، فكيف بعطاء اهل البيت عليهم السلام، حيث وصل بهم العشق الآلهي لأن يروا انفسهم انهم لم يفوا لبارئهم، بل انهم مدينون له سبحانه، وهكذا يعلمونا دروساً في العبودية الخالصة فهو المعبود لا سواه ونحن عبيده المحتاجون الى رحمته.

هكذا كان اخلاص اهل البيت في عطائهم، فنالوا اعلى مراتب الرفعة والخلود فهم عباد مخلصون..

---

(١) نهج البلاغة، خطبة (١٩٣).

الفصل الثالث

مفهوم العصمة وتنزيه الانبياء عليهم السلام

العصمة لغة هو المنع[1] وفي الاصطلاح ـ عند المتكلّمين ـ خصّت بمن يمتنع باختياره عن فعل الذنوب والقبائح بلطف يحصل له من الله سبحانه. وذكر الشيخ المفيد في شرح عقائد الصدوق في باب الاعتقاد بالعصمة ما لفظه: قال الشيخ المفيد العصمة من الله لحججه هي التوفيق واللطف والاعتصام من الحجج بهما عن الذنوب والغلط في دين الله، والعصمة تفضل من الله تعالى علىٰ من علم انه يتمسك بعصمته والاعتصام فعل المعتصم وليست العصمة مانعة من القدرة على القبيح ولا مضطرة للمعصوم الى الحسن ولا ملجئة لهُ اليه بل هي الشيء الذي يعلم الله تعالى انه اذا فعله بعبد من عبيده لم يؤثر معه معصية له، وليس كل الخلق يعلم هذا من حاله بل المعلوم منهم ذلك هم الصفوة والاخيار.."[2].

ولما كانت العصمة تشمل جميع الانبياء والرسل، فقد آثرنا الحديث عن آدم عليه السلام فهو احد المصاديق البارزة من جهة ولكون الشبهات التي أُثيرت حوله قد ذهبت الاقلام والمذاهب الى آراء وفرق متعددة فتوهّم جمع غفير من المسلمين لما نفوا العصمة عنه وعن سائر الانبياء عليهم السلام من جهة ثانية.

﴿فَتَلَقَّىٰ آدمُ مِنْ ربِّهِ كلماتٍ فتابَ عليهِ انَّهُ هو التّوابُ الرّحيم﴾

(البقرة/٣٧)

---

(١) لسان العرب مادة عصم.

(٢) تصحيح الاعتقاد المطبوع مع اوائل المقالات ص ٢٣٦.

ما المقصود بالتوبة في هذه الآية الكريمة؟

وهل عصىٰ آدم حقاً ـ كما يظهر من الآية الشريفة: وعصىٰ آدم ربّه فغوىٰ[1] ـ حتىٰ استوجب العقاب من الله سبحانه فاخرجه من الجنان واسكنه الأرض؟ وهل إخراجه من الجنة عقوبة كانت من الجليل جل اسمه لآدم؟

اقول لا بد من الاشارة الىٰ بعض الآيات ذات العلاقة بموضوع الآية المذكورة في صدر البحث وتوضيح بعض الدلالات التي لها صلة في قضية توبة آدم وما جرىٰ له من ذِكرْ في القرآن الكريم بهذا الصدد..

من خلال القرآن الكريم عرفنا أن آدم عليه السلام كان ـ وزوجه ـ في الجنة ومكث فيها زمناً لا نعلمه علىٰ وجه التحديد، امّا كيفية المكوث وما حدث له فنعرف اجمالاً بعض الشيء من خلال الآيات الكريمة منها:

﴿وقُلنا يا آدمُ اسكُن انتَ وزوُجك الجنّة وكُلا مِنها رَغداً حَيثُ شِئتُما ولا تَقرَبا هذه الشَّجَرة فتكونا مِنَ الظَّالِمين﴾[2].

هذه الآية الشريفة وما بعدها وغيرها في مواطن اخرىٰ من القرآن العزيز تكشف لنا صوراً متعددة لآدم وهو في الجنة والمراحل التي مرّ بها، انظر الىٰ مقاطع الآية وكذا ما بعدها: اذ الخطاب موجه من الجليل لآدم بصورة نهي **﴿ولاَ تَقْرَبا هذه الشَّجَرة..﴾** ثم بعد ذلك حذّره من الظلم فقال جل شأنه **﴿فتَكونا مِن الظَّالِمين..﴾** ثم مرحلة اخرىٰ.. **﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطان..﴾**[3]، ثم مرحلة التوبة بعد اعترافهما بالظلم **﴿قالاَ ربّنا ظَلَمْنا أنفُسَنا وَإنْ لَم تَغفِر لَنا وتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرين﴾**[4] ثم مرحلة الاخراج والخروج من الجنّة **﴿قُلنا اهْبِطُوا مِنْهَا...﴾**[5] وبعد اخراجه من الجنة وهبوطه الى الارض تلقىٰ كلمات فيها توبته وخلاصه.. **﴿فَتَلَقّى آدَمُ مِنْ رَبِه كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْه..﴾** هذه الصور والمراحل تجدها في سورة

---

(١) سورة طه الآية ٢١.

(٢) سورة البقرة الآية ٣٥.

(٣) سورة البقرة الآية ٣٦.

(٤) سورة الاعراف الآية ٢٣.

(٥) سورة البقرة الآية ٣٦.

البقرة وكذا في سورة الاعراف وكذا في سورة طه التي فيها الآية الكريمة: ﴿وعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ..﴾ كما تقدم.

من خلال هذا العرض السريع لبعض الآيات سوف نواجه مجموعة من الاسئلة وقد حصرناها في ستة فقرات:

١ ـ ما المراد بالنهي في الآية الكريمة، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ..﴾؟.

٢ ـ كيف عصىٰ آدم ربه؟ وما هي الغواية هنا؟

٣ ـ ما المراد بالظلم في الآية الشريفة؟[1].

٤ ـ لماذا نسب الازلال والاخراج الىٰ الشيطان؟[2].

٥ ـ هل كان خروج آدم من الجنة عقوبة له؟

٦ ـ اذا لم يعصِ آدم فلم تاب وما معنىٰ توبته؟

هذه ست فقرات من الاسئلة تستحق الجواب، لكنني لا اريد ان ابحث عن هذه العناوين وادخل في تفاصيلها بقدر ما اريد الاشارة اليها وحسب، وذلك لضرورة حتّمها سياق الموضوع من جهة، وكذا لحاجة ثلة من الناس من جهة اخرىٰ، لذا نريد بذلك دفع وهم حاصل عند الكثير من ابناء الطائفة.

والذي يحزّ في النفس ان معارف وعلوم اهل البيت لم تزل محجوبة عن ابناء الاسلام بسبب تقصير بعض اهل العلم من المبلغين والكتّاب ومن حُمّلوا عِبء الامانة التي تمثلت من بعد الرسول الأكرم صلىٰ الله عليه وآله وسلم والأئمة الاطهار بالعلماء ثم الكتّاب ومن بعدهم الخطباء والمبلّغين.

وقد وجدت هذا التقصير عندما كنت في النجف الأشرف وأنا أستمع الىٰ محاضرة لاحد الخطباء اللامعين اذ تعرض لسورة يوسف وهو يلوّح الىٰ وقوع يوسف عليه السلام في المعصية مدّعياً ان القرآن صريح في عبارته، وقد قال بالحرف الواحد: [أن القرآن يقول ﴿همّت به وهم بها﴾ اي جاذبته اطراف الحب فطلبت منه

---

(١) ﴿قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا...﴾ سورة الاعراف الآية ٢٣.

(٢) ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ...﴾ سورة البقرة الآية ٣٦.

الاقتراب ليقضي معها وطرا وقد استجاب ﴿لولا أن رأىٰ برهان ربه..﴾ فلا حاجة الىٰ تأويل الآية والقول بأن يوسف همَّ بها اي ليضربها] كان هذا الحديث في اوائل السبعينات وعلىٰ مستوىٰ محاضرة في التاريخ وفي النجف الاشرف معقل العلم والعلماء..!! علماً ان هذا المعنى -عدم عصمة الانبياء- هو ما يوافق بعض المذاهب السنيّة.

واليوم ايضاً نسمع ما يصب في تلك القناة، نعم كان الحديث ليس عن يوسف عليه السلام فحسب بل شمل الحديث عند البعض جميع الانبياء وادعىٰ اولئك انهم غير معصومين لا قبل ولا بعد النبوة..

يا أسَفىٰ علىٰ رجال الدين والتبليغ اين مضوا...

والآن يجدر بنا ان نجيب عن الفقرات المتقدمة بشكل من الايجاز:

جواب الفقرة الاولىٰ:

لا يخفىٰ ان الأمر في اللغة ينقسم الى قسمين احدهما امر واجب -على المكلف- الاتيان به كما لو قلت صُم رمضان او لا تغتب مؤمناً.. والآخر امر لا يدل على الوجوب، كما لو قلت: لا تعبث باصابعك في الصلاة أو كما لو قلت: لا تأكل في الطرقات، فهذا لا يدل علىٰ وجوب عدم الأكل وانما يحمل علىٰ الكراهية، ولو فعلته لم تستحق العقوبة، بل المقصود انك لا تستحق الثواب الكامل كما هو الحال بالنسبة للعبث في الصلاة.

اما النهي في الآية الكريمة ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ...﴾ لا يراد به على وجه الالتزام او التحريم بل هو نهيٌ تنزيهي اي ان عدم امتثال آدم لهذا النهي يعني انه ترك الأولىٰ الذي كان يستحق عليه الثواب العظيم، علماً ان الاصل في الاشياء هي الأباحة لذا كان النهي بمثابة ترجيح ترك الفعل علىٰ الاتيان به، وإلا اذا كان النهي تحريماً فمعنىٰ الاتيان بالمنهي عنه معصية كبيرة يستحق فاعلها الذم والعقوبة وهذا ما يقرّه العقلاء وفي اطار الناس العاديين فكيف لو كان بين محيط الانبياء الذين اصطفاهم الله لتبليغ رسالاته وحمّلهم ثقل النبوة؟

ولو سلّمنا ان النهي في الآية للتحريم وليس نهياً تنزيهياً، وان آدم ارتكب الشيء المحرم ـ المنهي عنه ـ اذن ما الفرق بين النبي والانسان العادي؟ ولِمَ خُصّ آدم بالنبوة؟

وخلاصة ذلك انّ النهي في الآية هو نهي تنزيهي وليس نهياً مولوياً، لأن آدم عليه السلام عندما كان في الجنة لم يكلف بالاحكام، لذا عدم الالتزام او ارتكاب المنهي عنه لا تعني ارتكاب المعصية او الكبيرة كالتي نفهمها نحن.

وما ارتكبه آدم عليه السلام لم يكن ذنباً كما تصوره علماء العامة، لأنه خلاف منطق العقل، كما ان هذا التصور مشين بساحة الانبياء وغير لائق بهم(١).

وكل ما يمكن ان يقال في حق آدم عليه السلام انه ترك الاولىٰ الذي يستحق عليه كامل الأجر والثواب.

رب سائل يسأل:

لِمَ اكل آدم من الشجرة مع ان الله سبحانه وتعالىٰ امره بعدم الاقتراب منها؟

جواب هذا السائل يتضح من خلال بيان امور منها:

اولاً: ان النهي في الآية لم يكن مرتكزاً في ذهن آدم عليه السلام حال الأكل بدليل الآية الكريمة: **﴿وَلَقد عَهِدنا الىٰ آدمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسى ولَمْ نَجد له عَزْماً﴾**(٢). وهذا النسيان لم يكن بعيداً عن علم الله ولا مستوراً مما ترتبت عليه امور ومصالح الهية فيها انتظم الكون وتدرجت الحياة مروراً بمراحل عديدة منذ بدئها بابسط صورها والىٰ يومنا هذا التي تمثلت المدنية فيها وارتقت الىٰ ذروتها العليا.

ثانياً: ان ابليس ـ عليه اللّعنة ـ حلف لادم وحواء فقال لهما: ان الله ما نَهاكما عن هذه الشَّجرة إلّاَ لِتَكونا ملكَين او من المخلدين، وقطعاً ان ابليس كان كاذباً في

(١) في الخصال بسنده عن جعفر بن محمد عن ابيه عليه السلام قال ان ايوب النبي عليه السلام ابتلي سبع سنين من غير ذنب وان الانبياء لا يذنبون لانهم معصومون مطهرون لا يذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً. انظر مجمع البيان ١/٨٩.

(٢) سورة طه الآية ١١٥.

قسمه هذا، انظر الى الآيات الكريمة: ﴿وَيا آدمُ اسْكُن أَنْتَ وَزَوْجُك الجَنّة فكُلا مِنْ حَيثُ شِئتما ولا تَقرَبا هٰذه الشَّجَرة فتكونا من الظَّالِمين، فوَسْوَسَ لهُما الشّيطان لِيُبديَ لَهما مَا وُري عَنهما من سَوآتِهما وقال مَا نَهاكُما ربُكما عن هذه الشّجرة إلاّ ان تكـونـا مَلكين او تَكُـونـا من الخـالِـدين، وقـاسَمَهُمَـا اني لَكُمـا لَمِن النّاصحين. .﴾[1].

ثالثاً: انّ ابليس ـ عليه اللّعنة ـ قد اجهد نفسه غاية الجهد من خلال حسده لآدم ان يوقع به، اي يوقعه في الخطأ ومن ثم حرمانه من المنزلة التي كان يتمتع بها آدم وقربه من ساحة الله سبحانه وتعالىٰ، انظر الىٰ الآيـة الكريمـة: ﴿فَدَلاَّهُمـا بِغُـرُور. .﴾[2] انّ التّغريـر الذي استعمله ابليس لآدم هـو ذلك الأصرار والقسم الكاذب، انظر الىٰ الآيات البينات: ﴿فَوَسوس لَهما الشّيطان لِيُبدِي لهمَا ما وُري عَنْهما مِنْ سَوآتِهما وقال مَا نهاكُما ربُكما عَن هذه الشّجرة إلاّ أَن تكونا مَلَكين او تَكونا مِنَ الخالِدين، وقاسَمَهُما إنّي لَكُما لَمِن النّاصِحين فَدَلاّهُما بِغُرور. . .﴾[3] وقـوله تعـالى: ﴿فَوَسْـوَسَ إليَه الشّيْطان قال يَـا آدمُ هل أَدُلُّـك علىٰ شَجَرةِ الخُلد ومُلكٍ لاَ يُبلىٰ. . .﴾[4].

فايّ تغرير بعد هذا؟! اضف الىٰ ذلك ان ابليس لم يكشف عن كذبه كما ان آدم عليه السلام لم يطّلع علىٰ هذا الكذب بل ما كان يعرف للكذب معنىٰ اما نسيان آدم امر ربه فهناك احتمالان:

الاول: يحتمل ان آدم عليه السلام نسي النهيِ الموجّه اليه، كحقيقة دالة على المنهي لذا اكل من جميع الاشجار بضمنها الشجرة المنهي عنها الأكل.

الثاني: ان آدم نسي فقط نوع الشّجرة المنهي عنها الأكل، وهذا النسيان كان السيب المهم في مخاطبة ابليس لآدم وحوّاء والذي دلّهما على نفس تلك الشّجرة

---

(١) سورة الاعراف الآيات ١٩ ـ ١ف.

(٢) سورة الاعراف الآية ٢٢.

(٣) سورة الاعراف الآيات ١٩ ـ ٢١.

(٤) سورة طه الآية ١٢٠.

ورغّبهما في الأكل منها واقسم لهما انه من الناصحين، وغـرض ابليس من هذا الدفع والأصرار، هو ايقاع آدم وحواء في الخطأ كي يُحرما من تلك المنزلة وذلك القرب اللذين كانا يتمتعان بهما، ولا يخفى ان هذه الاحداث كانت مقدّرة في علم الله سبحانه وتعالىٰ وان حكمته شاءت ذلك فكانت الامور تجري باسبابها، ولكن هذا الاحتمال كسابقه في الضعف[1] ولم يبق لنا اختيار سوىٰ ان نقول بأن النسيان لم يكن منصباً علىٰ نوع الشّجرة وانما كان منصباً علىٰ ذات الشّجرة، هل كانت هذه ام تلك ام غيرهما، بمعنىٰ آخر تعدد مصاديق النوع المنهي عنه في الخارج، وابليس استفاد من هذه الشبهة فاقسم لهما ـ كاذباً ـ بان الشجرة المنهي عنها ليست هذه بعينها بل شجرة اخرىٰ غيرها وان كانت هذه تطابق تلك في الأسم والشكل، علىٰ أيٍّ استعمل ابليس اسلوب الأيمان المغلطة حتىٰ أوقع آدم وحواء عليهم السلام في الخطأ من خلال القسم الكاذب والتغرير بهما.

جواب الفقرة الثانية:

﴿وعَصَىٰ آدمُ ربَّه فَغوىٰ. .﴾ يقع الكلام اولاً في اصل المعصية، وهل جائزة علىٰ الانبياء ـ وبضمنهم المعصومين ـ ام غير جائزة ولذا حري بنا ان نتعرض الىٰ عصمة الانبياء بإيجاز.

اختلاف المسلمين في عصمة الانبياء

اقول اختلف المسلمون في عصمـة الانبياء اختـلافاً كبيـراً، والحديث عن عصمتهم عليهم السلام في اقسام:

القسم الأوّل: في اعتقاد الانبياء.

القسم الثاني: في التبليغ.

القسم الثالث: في الاحكام والفتيا.

---

(١) اقول: الاحتمال الاول وارد في المقام الا انه ضعيف، واما الاحتمال الثاني فممكن مناقشته، وهو: ان القول بان آدم وحواء نسيا نوع الشجرة المنهي عنها قد يكون مردوداً بقوله تعالىٰ، حكاية عن ابليس ﴿وقال ما نَهاكما ربُّكما عن هٰذه الشَّجرة اِلّا اَنْ تكونا مَلكَيْن. .﴾ مما يشير الىٰ مفروغية النهي لدىٰ آدم وحواء عن هذا النوع من الشجر.

القسم الرابع: في السيرة والافعال المختصة بهم عليهم السلام.

اما القسم الاول، فقد اجمعت الامة علىٰ ان الانبياء موحّدون ولا يقع الكفر والشرك منهم باستثناء فرقة واحدة من الخوارج وهم الفضلية، قالت بوقوع الذنب من الانبياء. والذنب عند الفضلية كفر وشرك، لذا لا يبعد وقوع الكفر منهم. وهذا امر عجيب جداً قاتلهم الله عما يأفكون!!

واما القسم الثاني، ايضاً اجمعت الأمة انه لا يقع من الانبياء الخطأ في التبليغ ونشر الرسالة لا عمداً ولا سهواً، خلا بعض الناس ـ كالبقلاني ـ اذ جوزوه سهواً.

واما القسم الثالث: كذا اجمعت الأمة علىٰ انه لا يجوز خطؤهم في الفتيا عمداً، أما سهواً فبعضهم جوّزه وآخرون أباه.

واما القسم الرابع، حيث الاختلاف فيه كثير، وملخصه يقع في طوائف ثلاث:

الطائفة الاولىٰ:

الشيعة الامامية الاثنا عشرية لا تجوّز علىٰ الانبياء ارتكاب الذنب مطلقاً سواء كان الذنب من الكبائر أم من الصغائر، عمداً كان أم سهواً، قبل النبوة أم بعدها[1]، فهم معصومون من حين الولادة، وهذا ما يوافق حقيقة معنىٰ النبوة والرسالة، لذا النبي لا بدّ ان يكون مختاراً من بين عامة الناس ولا بد ان يمتاز بصفات لا يتمتع بها غيره وله استعداد خاص ومؤهلات ينفرد بها من بين سائر المجتمع الذي يعيش فيه ذلك النبي، ولهذه المناسبة نجد نعوتاً كثيرة قد اطلقها القرآن الكريم بحقهم منها: انهم الهادون، وهم المهديون، وهم المقربون، وهم المطهرون، وكذا بقية الصفات التي اشار اليها القرآن كالمنقذ، والمرشد، والامام، والامين، والمصطفىٰ والمجتبىٰ، والمقرب. . . هذه النعوت والمواصفات تدلل علىٰ افضلية الانبياء علىٰ امهم وانهم القدوة والنموذج الامثل الذي يجب الاقتداء بهم والاستِنان بسننهم. . .

---

(١) دلائل الصدق ١/٥٩٨.

الطائفة الثانية:

وهم أهل الحديث والحشوية، وقد اختلفوا الىٰ اربعة مذاهب:

١ ـ بعضهم جوّز علىٰ الانبياء فعل الكبائر قبل النبوة وهذا مما ذهب اليه جماعة منهم الفخر الرازي.

٢ ـ والبعض الآخر جوّزها حال النبوة عدا الكذب الذي يتعلق باداء الرسالة.

٣ ـ وقسم ثالث جوّزها حال النبوة بشرط الاسرار دون الاعلان بها.

٤ ـ وقسم رابع قال بجواز ارتكابها ـ الكبيرة ـ عمداً قبل وبعد النبوة، وهو رأي اكثر الحشوية[١]، وسيأتي ردّنا عليهم إن انشاء الله بعد قليل.

الطائفة الثالثة:

المعتزلة واشهر مذاهبهم اربعة:

١ ـ فئة منهم منعت ارتكاب الصغيرة ـ علىٰ الانبياء ـ علىٰ سبيل العمد وإنّما اذا حصل فهو علىٰ سبيل التأويلٰ وهذا ما ذهب اليه ابو علي الجبائي وربّما هو اقرب مذاهب المعتزلة الينا من حيث توجيه تلك الآيات الكريمة.

٢ ـ فئة ثانية منعت ارتكاب الذنب علىٰ الانبياء عمداً، واذا حصل منهم ذلك فهو انما علىٰ سبيل السهو والخطأ والغفلة، الا انهم محاسبون عليه لما يمتلكون من معرفة وقدرة تميّزهم عن سائر الناس، وهذا المذهب محكي عن النظّام وجعفر بن مبشر وآخرون[٢].

٣ ـ فئة ثالثة من المعتزلة منعت الكبائر والصغائر المستخفّة من الانبياء، قبل وبعد النبوة، اما الذنوب غير المستخفة فربما حصلت منهم...!

٤ ـ فئة رابعة وهو رابع المذاهب والذي اكثر المعتزلة عليه، يعتقد هذا المذهب بجواز ارتكاب الصغيرة ـ دون الكبيرة ـ عمداً.

هذه لمحة وجيزة للمذاهب البارزة عند تلك الطوائف من المسلمين، لكن لا

---

(١) تنزيه الانبياء ص٣.

(٢) المصدر السابق ص٣.

تخلو من مناقشة حيث ان العقل والمنطق السليم يابىٰ تلك الاراء بل هي قابلة للرد، عملاً بالادلة النقلية والعقلية.

والرد يكون موجّهاً لكافة الطوائف المتقدمة التي جوّزت علىٰ الانبياء فعل المعصية كبيرها أو صغيرها، عمداً او سهواً، قبل النبوة او بعدها، والرد يحصل في امور:

الرد علىٰ الفضلية، اقول:

١ ـ لا بد من فهم معنىٰ الذنب، وهل يراد به الخروج عن حد الايمان والتوحيد؟ واذا لم يكن كذلك، فكيف يعقل ان نفسر الخطأ الواقع ـ عمداً أو سهواً ـ انه كفر؟

أوَلَم يكن الكفر هو جحود الخالق وعدم الايمان..؟ أي عدم الاعتقاد بوجوده! اين هذا المعنى من ذاك الذي عليه الانبياء والمرسلين من توحيد الله خالق الكائنات، والاقرار بربوبيّته وعدم الاشراك به...؟!

وعلىٰ هذا فان الفضليّة كفرت بقولهم ذاك، اذ جعلوا الذنب كفراً وبما انهم جوّزوا علىٰ الانبياء ارتكاب الذنب، اذن وقوع الكفر ـ علىٰ حد قولهم ـ من الانبياء جائز. هؤلاء الفضليّة جعلوا جزء السبب علة تامة والتي رتّبوا عليها كفر الانبياء ـ معاذ الله ـ وهذا واضح بطلانه، حيث انك لا تستطيع ان تطلق تسمية شيء ما من خلال جزئه فمثلاً جزء الاسم لا يعطي معنىٰ الاسم او علىٰ جزء معناه كما انك لا تستطيع ان تطلق كلمة انسان من خلال احد أجزاء بدنه.

وحاصل الكلام في هذا القسم ان الانبياء مبّرءون عن الخطأ في اعتقادهم عليهم السلام مطلقاً.

٢ ـ امّا من جوز خطأهم في مرحلة التبليغ فهو مردود بادنىٰ اشارة، لانك تعلم ان الله سبحانه وتعالىٰ قد اصطفىٰ انبياءه من بين الناس وجعلهم قدوة لاممهم وهم الهداة المهديون وقد اختارهم الله لهذه المهمة وجعل قلوبهم اوعية وحية وسدّدهم بتوفيق منه، وانه حافظ لوحيه بصريح قوله جل ثناؤه: ﴿**انّا نحْن نَزلنا الذّكر وانّا له لَحافظون**﴾ فكيف يسهو النبي في تبليغ رسالات ربه..؟!

٣ ـ اما بالنسبة إلىٰ من جوّز الخطأ في الاحكام والفتيا سهواً، كأنّما غاب عن ذهنه ان الشرايع السماوية ما نزلت الا لتهذيب السلوك الانساني عن طريق الامر الالهي والنهي الالهي، وهذا كله متمثّل بأقواله سبحانه وتعالىٰ وآياته الحقة والمنزلة علىٰ انبيائه، وما مهمة الانبياء والرسل الا توضيح تلك الآيات للناس لعلهم يعقلون. والكشف عن مراد الجليل لا يكون بدون واسطة ـ الا وهم الانبياء والرسل ـ اذن الانبياء هم الامناء في اداء الرسالة بما فيها من احكام وفتاوىٰ. فالمشرّع الوحيد للاحكام هو الله جل شأنه، وما علىٰ الانبياء الا ايصال تلك الاحكام والمفاهيم الىٰ اممهم، فالمشرّع هو الله سبحانه وهو باعث الانبياء والرسل وهو الحافظ لدينه ورسالاته. وما يصح دليلاً في القسم المتقدم يصح هنا ايضاً ﴿إنّا نحْن نزّلنا الذّكر وَإنا له لَحافظُون﴾.

٤ ـ واما الردّ علىٰ مذاهب الطائفتين الثانية والثالثة من القسم الرابع، الذين جوّزوا وقوع الذنب من الانبياء بأيّ صورة كانت فهذا غريب جداً، واي فرق بين هذا القسم والاقسام الثلاثة المتقدمة؟

اليس اقوال الانبياء والرسل وافعالهم وتقاريرهم هي جزء من التبليغ الذي كلّفوا به، وصورة من صوره؟

اضف الىٰ ذلك ان الاحكام الشرعية امّا ان توجد صراحة او تستنبط، واستنباط الاحكام امّا ان يكون من القرآن او من السنة، لذا فان كثيراً من الاحكام انّما كانت تستنبط من اقوال الرسول او افعاله او تقريراته، لانها الجزء الآخر لاستنباط الاحكام الشرعية وغيرها، فالسنّة النبوية هي المرحلة المتّممة لعملية التشريع، ولا فرق في ذلك ـ كما يظهر ـ بين جميع الشرايع.

٥ ـ ان تجويز ارتكاب الذنب ـ عند المعتزلة ـ مما يقدح بغرض البعثة من القبول والامتثال، واذا كانت الذنوب ـ الصغائر ـ جائزة الوقوع منهم عمداً، فمن باب اولىٰ جواز وقوع بقية المخالفات منهم؛ الصغائر من الذنوب، بل مطلق الذنب، كالكذب والغش والبهتان والافتراء والغيبة سهواً. . . الخ اضافة الىٰ ما اسلفناه سابقاً من انه يقدح بساحة النبوة والانبياء ومشين لهم فهو ـ ارتكاب الذنب ـ

مما ينفّر الناس عن قبول التعاليم السماوية، بل لا يحصل منهم الانقياد ولا الطاعة لانبيائهم هذا علىٰ اقل التقادير.

والسبب في ذلك جلي، لأن طبائع الناس تنقاد - في الحالات الطبيعية - الىٰ النفوس المهدية، وتسكن اليها عندما تجدها طاهرة زكية قد خلصت من درن المعاصي والاثام وهذه الميزات لا تحصل في الانسان العادي الذي جُبِلَ علىٰ المعصية، بل لا بد ان تكون مجتمعة في فردٍ عصمه الله تعالىٰ من الذنب والزلل حتىٰ يأخذ بمجامع القلوب، فيكون قوله وعمله ووعظه وارشاده مما تسكن اليه النفس وتطمع اليه البشرية في الخلاص، لان احتمال وقوع الذنب منهم مستحيل.

٦ - المعاصي - عندنا - كلّها كبائر فمن جوّز علىٰ الانبياء الصغائر فردّه كما سبق، لأن المعصية واحدة وإنّما سميت صغيرة باضافتها الىٰ ما هو اكبر عقاباً منها[١]. فجميع المعاصي والذنوب تكون منفّرة. وهذا خلاف من ادّعىٰ ان الصغائر من الذنوب حكمها كمن ترك نفلاً فلا يستحق الثواب وعلو المنزلة. لان الذنوب كلها - صغيرها وكبيرها - تُعدّ من القبائح، وكل قبيح يستحق فاعله الذّم والعقوبة، واذا سلّمنا بان الانبياء لا تجوز عليهم العقوبة ولا الذّم صحّ ما قلناه آنفاً من انّهم منزّهون عن المعصية بأيّ شكل من الاشكال، وذلك لطهارة نفوسهم وصفاء سريرتهم من جهة، وللتسديد الرباني من جهة اخرىٰ.

اما ترك النفل فالنبي مندوب له وليس فيه امرٌ علىٰ وجه الالزام والوجوب بل حظّه منه هو الزيادة في الثواب والرقي في الرتبة والمنزلة. وترك النفل او الندب لا يترتب عليه اي عقوبة ولا ذم ولا هو منفّر، وكل ما يقال فيه هو تنقيص الثواب.

٧ - امّا ما ذهب اليه النظّام، ومن تبعه في تجويز الخطأ علىٰ الانبياء، وإنّه يحصل من باب السهو والغفلة لذا فهم محاسبون عليه، فهذا باطل وقد دلل علىٰ هذا البطلان نفسه، صاحب المذهب، من غير ان يشعر به.

اعلم ان المحاسبة والمؤآخذة لا تقع إلّا من حيث وجود التكليف وبقائه مع كونه موجّهاً للمكلّف، امّا اذا ارتفع ذلك التكليف في حال من الاحوال فلا يؤآخذ عليه المكلف، لان لا تكليف عليه، فأيّ معنىٰ للمؤآخذة؟

(١) تفسير الميزان ٣٢٥/٤ - ٣٢٨.

كما ان السهو والغفلة أو النسيان في الواقع منشأ لارتفاع التكليف لكن في آنٍ ما بسبب قهري غير اختياري، فكيف يُوآخذ النبي علىٰ شيء ليس من محض ارادته ولا من اختياره، بل اذا حصل السهو ـ على تقدير القائل ـ فهو انما بتقدير المولىٰ ومقتضىٰ حكمته، وإلّا يكون حسابهم وعقوبتهم ظلم من الله والظلم قبيح، والله جلّ شأنه لا يفعل القبيح، وبهذه المناسبة ارتفع التكليف عن المغمىٰ عليه والنائم والمجنون.

٨ ـ اقول ـ اضافة الى ما تقدم ـ كيف يحصل الناس الوثوق بالانبياء في اداء الرسالة والتبليغ اذا لم يتنزّهوا عن الخطأ العَمدي في سيرتهم وافعالهم، علماً ان ارتكاب المعصية عمداً من الفرد العادي يوجب نفرة الآخرين منه ويعّرضه الىٰ السقوط، فكيف لو حصلت المعصية من الانبياء؟

اذن لا بد من القول بعصمتهم جميعاً من دون استثناء، بل ان عصمتهم معجزة اخرىٰ اضافة الىٰ معاجزهم التي ظهرت علىٰ ايديهم باذن الله، وإلّا كيف يحصل لهم الانقياد من قبل الناس ما لم يكونوا مثالاً للاستقامة في القول والعمل؟

واذا لم تحصل لهم الاستقامة فما الفرق بينهم وبين عامة الناس؟

ولِمَ خصّهم الله دون غيرهم بتحمّل الوحي واعباء الرسالة وتبليغ الامانة...؟!

٩ ـ اقول لا فرق في بطلان قول من قال بحصول المعصية حال النبوة او قبلها وان تاب منها، لان الجميع يتعلق بساحة المعصية التي تكدّر النفس والقلب، وبها تهبط الروح الىٰ التسافل والقذارة، وكما اسلفنا ان ذلك ينفّر الناس، ويصدّهم عن الايمان برسالة الانبياء، لان المرشد أو المبلّغ اذا انكشفت لك قبائح فعاله، ومعاصيه الماضية، مع علمك انه قد اقلع عنها ـ الآن ـ وتاب، سوف لا يؤثّر فيك كما لو كان معصوماً من الزلل ومبّرءاً من الدنس والذنب، والعلّة في ذلك لما في ذهنك من صورة قبيحة عن سلوك ذلك المبلّغ ـ النبي ـ، فلا تطمئنّ النفس الىٰ اقواله او سلوكه الجديد لانك ترىٰ في حق هذا النبي ان مقارفته للذنب ثانية محتمل طالما كانت له سابقة غير مرضية... اما المبلّغ ـ النبي ـ الذي عرفت طهارته

ونزاهته وعصمته منذ ولادته الىٰ حين وفاته فتأثيره في النفوس والانقياد اليه شيء مسلّم بخلاف من تقدّم.

لأن طبائع البشر تنقاد لسحر الفضيلة وللقلوب الطاهرة وللعصمة المتمثّلة في الانبياء، وهكذا فالناس منقادة الى عيّنات خالصة من الاثم، نقيّة من الزلل، معصومة عن الخطأ، وهذه العيّنات والجواهر هم الانبياء والرسل عليهم السلام.

اذن العصمة ـ في مفهومها الحقيقي قوة تمنع صاحبها من الوقوع في المعصية والخطأ وهذه القوة هي من محض ارادته، بحيث لا يترك واجباً ولا يفعل محّرماً مع قدرته على الترك والفعل. لهذا استحقّ المعصوم المدح والثواب. ومبدأ هذه القوة الإرادة التي هذّبتها التقوى في القول والعمل بحيث لا تدع مجالاً لأن تتغلب القوّة الشهوانية على القوة العقلية.

والمعصوم: الممتنع من جميع محارم الله كما جاءت الرواية مجمع البحرين ج ٦ باب عصم. وعن الامام زين العابدين، علي بن الحسين عليه السلام: «الامام منا لا يكون الا معصوماً، وليست العصمة في ظاهر الخلقة فتعرف، قيل فما معنى المعصوم؟ قال المعتصم بحبل الله، وحبل الله هو القرآن، لا يفترقان الى يوم القيامة، والامام يهدي الى القرآن والقرآن يهدي الى الامام، وذلك قوله تعالى: **﴿إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾** ـ تفسير الصافي ١/ ٩٦٠.

كل ما تقدم من الاستدلال كما هو ينطبق علىٰ الانبياء كذلك ينطبق على المعصومين في تنزيههم عن المعاصي والدنس وذلك بصريح الآية الكريمة: **﴿إنّما يُريد الله ليذهَب عنكُم الرّجس اهلَ البيت ويطهّركُم تطْهيرا﴾**. الاحزاب ٣٣.

قال الشيخ المفيد: إن الأئمة القائمين مقام الانبياء في تنفيذ الاحكام واقامة الحدود وحفظ الشرائع وتأديب الأنام، معصومون كعصمة الانبياء وانهم لا يجوز منهم صغيرة.. وانه لا يجوز منهم سهو في شيء في الدين ولا ينسون شيئاً من الاحكام ـ وعلى هذا مذهب سائر الامامية الا من شذ منهم وتعلق بظاهر روايات لها تأويلات على خلاف ظنه الفاسد..

اوائل المقالات ٧٤

وقال العلامة الحلي: ذهب الامامية الى أنّ الأئمة كالانبياء في وجوب عصمتهم من جميع القبائح والفواحش، من الصغر الى الموت، عمداً وسهواً، لانهم حفظة الشرع، والقوّامون به، حالهم في ذلك كحال الانبياء، ولأنّ الحاجة الى الامام انّما هي للانتصاف للمظلوم من الظالم ورفع الفساد، وحسم مادة الفتن، وان الامام لطف يمنع القاهر من التعدي، ويحمل الناس على فعل الطاعات، واجتناب المحرمات ويقيم الحدود والفرائض، ويؤاخذ الفسّاق ويعزّر من يستحق التعزير، فلو جازت عليه المعصية وصدرت عنه انتفت هذه الفوائد..

نهج الحق ـ للعلامة الحلى ص ١٦٤

هذه جملة من الايرادات التي اردنا ذكرها وتركنا التفصيل الى مجال آخر اذا شاء الله سبحانه آملاً ان ينتفع بها القارىء وعند الله الصواب واليه المآب. نعود الىٰ ما اشرنا اليه في اول البحث:

ان المعصية التي ذكرها القرآن الكريم بالنسبة لآدم عليه السلام ـ كما يظهر ـ انه ترك الاولىٰ، المندوب اليه والاستعمال هنا يحمل علىٰ المجاز، ولا يمكن القياس عليه، ومن يدقّق النظر في القرآن الكريم يجد آيات كثيرة في هذا الخصوص، لذا تُحْمَل المعصية هنا علىٰ المعنىٰ الواسع الذي يدخل فيه المجاز، هذا والله العالم. اما الغواية، فيراد بها الخيبة من حصول الثواب لانه عليه السلام ترك المندوب اليه، الذي يستحق بفعله ـ المندوب ـ الثواب الكامل، والله ادرىٰ بحقائق الامور.

جواب الفقرة الثالثة:

اتضح مما سبق ان آدم عليه السلام ترك الأولىٰ، اي الشيء المندوب اليه وبهذا الفعل فوّت علىٰ نفسه الثواب والمنزلة العظيمة التي تمثّلت بوجوده في الجنة وقربه من الله عز وجل وارتفاع التكليف وعناء الحياة عنه.. الخ فدعائهما: ﴿رَبَّنا ظَلَمنا أنْفُسنا...﴾ يعني اننا انقصنا انفسنا وحرمناها من ذلك الثواب المرجو لنا، فالظلم هنا يراد به النقص، وهذا شأن من فوّت علىٰ نفسه جملة من المنافع والامتيازات ـ بتركه الارشادات والتوصيات ـ فيصف نفسه حينئذ انه ظلمها لذهاب تلك المنافع من عنده.

ويحتمل هناك قول آخر في كلمة (ظلمنا انفسنا) حيث قيل ظلمنا انفسنا بالنزول الىٰ الأرض ومفارقة العيش الرغد، كما حكاه الطبرسي[1].

جواب الفقرة الرابعة:

نُسب الازلال الىٰ الشيطان لانه كان سبباً في حمل آدم عليه السلام علىٰ الأكل من الشجرة عن طريق الاغواء والوسوسة والقَسَم الكاذب والاغراء، والىٰ غير ذلك من الأساليب التي جاء بها ابليس ـ عليه اللعنة ـ وهـذا الاسلوب حمل آدم وحواء عليهم السلام علىٰ الزلّة وهو الاكل. اما سبب ذلك الاغواء هو لما في نفس ابليس من عداوة وبغضاء وحسد لآدم، والقرآن الكريم يبيّن لنا هذه العداوة في قوله تعالىٰ: ﴿**واذ قُلنا للملائكةِ اسجُدوا لآدم فسجدوا إلّا ابليس أبىٰ، فقلنا يا آدمُ إنَّ هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجَنكما من الجنة فتشقىٰ..**﴾[2]. وقوله تعالىٰ: ﴿**... وناداهما ربّهما ألَم انهكما عن تلكما الشجرة واقل لكما إنّ الشيطان لكما عدوّ مبين**﴾[3].

وهكذا قل بالنسبة للأخراج حيث نسبه تعالىٰ الىٰ ابليس لأنه كان سبباً له.

جواب الفقرة الخامسة:

لم يكن اخراج آدم وحواء عليهما السلام من الجنة علىٰ سبيل العقوبة، بل هو أمر تكويني ناتج عن مصلحة.

والمصلحة اختلفت باختلاف الاحوال، اي كانت المصلحة ببقاء آدم وحواء في الجنّة، لكن بشرط الطاعة وامتثال اوامر الله سبحـانه وتعـالىٰ التي منها عـدم الاقتراب من الشجرة او عدم الأكل منها. ولمّا اكلا منها تغيّرت المصلحة تلك. وتبدّلت واصبح هبوط آدم وحواء الىٰ الأرض هو الغرض فيما بعد، وهذه مصلحة اخرىٰ، لذا كان الأمر تكوينياً، اي ان هبوطهما كان نتيجة الأكل كما ان النار يتبعها

---

(١) مجمع البيان ٤٠٧/٤.
(٢) سورة طه الآيات ١١٦ ـ ١١٧.
(٣) سورة الاعراف الآية ٢٢.

الاحراق والرماد، وان تناول السم يتبعه القتل، اذن ليس بين هذه الامور ونتائجها تلازم في التشريع بل تلازم في التكوين، ولمثل هذا قل في شأن آدم عليه السلام وهبوطه الىٰ الأرض.

وكما يتضح من الآيات الكريمة ان آدم خُلق لأن يعيش ويحيا في الأرض لا في السماء، انظر الىٰ الآية الكريمة: ﴿**وإذْ قال ربك لِلْملائكة انّي جاعل في الأرض خليفة...**﴾[1] يا ترىٰ من هو الخليفة؟

هو آدم وذريته من بعده، ومثل ذلك نقرأ في سورة يونس: ﴿**ثم جعلنا خلائف في الأرض...**﴾[2]، وكذا في سورة النمل: ﴿**ويجعلكم خلفاء الأرض**﴾[3]. فالمراد هنا عموم الخلافة التي مثلها الانسان. فالحكمة الألٰهية اقتضت بعد اكل آدم من الشجرة هو الهبوط الىٰ الأرض مع تدارك الرحمة لهذا الانسان الضعيف الذي حمل الأمانة واي امانة؟ هي تلك التي أبت الملائكة والسماوات والأرض ان تحملها، وقد حملها الأنسان وهو ظلوم جهول[4]، اي نصب نفسه للتعب والعناء والمشقة والكد والكدح. ومع كل ذلك ان الله سبحانه وتعالىٰ احاطه برحمة منه وشفقة وتجاوز عنه بمنه واحسانه، فعلّمه التوبة انذاك في مقام الخروج عن العبودية له وتقبّل منه تلك التوبة بعدما اناب اليه واستغفر لذنبه.

لذا خروج آدم من الجنة لم يكن عقاباً له، لاننا قلنا سابقاً لا يصح من الانبياء وقوع الذنب والمعصية في الأمر المولوي الموجه لهم.

واذا سلمنا ـ جدلاً ـ وقوع المعصية من آدم وحواء فان توبتهما واستغفارهما يجعلهما كمن لا ذنب له، وحينئذ فلا بد من اعادة المنزلة لهما وعودهما الىٰ القرب الذي كانا عليه وكل ذلك متمثل بالجنة التي سكنها آدم وحواء، ومع ذلك لم يعد آدم وزوجه ـ بعد استغفارهما مباشرة ـ الىٰ الجنة ثانية، بل مكثا في الارض الى حين وفاتهما.

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠.

(٢) سورة يونس الآية ١٤.

(٣) سورة النمل الآية ٦٢.

(٤) ﴿**انّا عَرَضنا الامانة علىٰ السمواتِ والارض والجبال فأَبين ان يحملنَها وأَشفقن مَنها وحملَها الانسان انه كان ظَلوما جَهولا..**﴾ سورة الاحزاب الآية ٧٢.

اذن المعصية لم تصدر من آدم علىٰ الوجه الذي يدّعيه اكثرية علماء العامة، كما لا بد ان يكون النهي في الآية (لا تقربا الشجرة. . .) نهياً تنزيهياً.

ولما اكلا من الشجرة، بمعنىٰ انهما تركا الاولىٰ المندوب اليه، والهبوط إنّما كان، لانه امر ملازم للأكل كنتيجة وليس كعقوبة.

ثم ان العقوبة تعني الاهانة، فتشمل كل ألم نفساني، فمنه الطرد والبعد والصّد والاعراض وغير ذلك الواقع علىٰ سبيل الإهانة والاستخفاف، وما حصل لآدم لم يكن على هذا السبيل بل انه كان من المقرّبين المصطفين عند الله بصريح القرآن الكريم حيث قوله تعالىٰ: ﴿إن الله اصطَفىٰ آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآلَ عمران علىٰ العالمين﴾[1] وكذا قوله تعالى: ﴿ثم اجتَباه ربه فتاب وهدىٰ﴾[2]. وهذا الأجتباء انما هو رحمة ولطف من الباري لنبيّه آدم عليه السلام.

وهذه الرحمة لم تقتصر علىٰ آدم وحده عليه السلام، بل شملت ابناءه وذريته طول التاريخ، قوله تعالى في ذلك: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات. . .﴾[3].

اضافة الى ما تقدم، لدينا روايات كثيرة معتبرة عن اهل البيت عليهم السلام تدلل علىٰ أنّ آدم ما خُلِقَ للجنة، بل خُلِقَ للارض وان يعيش فيها ويحيا على أديمها ويأكل من نباتها. . .، من هذه الروايات: ما في تفسير العياشي والبرهان وغيرهما محكياً عن زرارة، قال: دخلت علىٰ أبي جعفر عليه السلام فقال: أي شيء عندك من أحاديث الشيعة فقلت أن عندي منها شيئاً كثيراً فقد هممت ان اوقد لها ناراً فاحرقها، فقال عليه السلام وارها تنس ما انكرت منها، فخطر علىٰ بالي الآدميّون، فقال ما كان علم الملائكة حيث قالوا: ﴿أتجعل فيها من يُفسد فيها ويَسفك الدماء﴾، قال وكان يقول ابو عبدالله عليه السلام إذا حدّث بهذا الحديث هو كَسْرٌ على القدرية، ثم قال ابو عبدالله عليه السلام: أن آدم عليه السلام كان له في السماء خليل من الملائكة فلما هبط آدم من السماء الىٰ الأرض استوحش

---

(١) سورة آل عمران الآية ٢٣.

(٢) سورة طه الآية ١٢٢.

(٣) سورة الاسراء الآية ٧٠.

الملك وشكىٰ الىٰ الله تعالى وسأله أن يأذن له، فأذن لـه فهبط عليه فـوجده قـاعداً في قفـرة من الارض فلما رآه آدم وضـع يده على رأسـه وصاح صيحـة، قـال ابـو عبدالله عليه السلام يروون انه اسمع عامة الخلق فقال له الملك يـا آدم ما أراك الا وقـد عصيت ربّك وحملت علىٰ نفسـك ما لا تـطيق، اتدري مـا قال لنـا الله فيـك ورددنا عليه؟ قال: لا، قـال: قال ﴿إنّي جاعل في الأرض خليفـة﴾ قلنا ﴿اتجعـل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟﴾ فهو خلقك ان تكون في الارض، أيستقيم ان تكون في السماء؟ قال ابو عبدالله عليه السلام والله عزّى بها آدم ثلاثاً(١).

جواب الفقرة السادسة:

اعلم ان التوبة بحد ذاتها لا تُسقِط العقاب، وانّما يُسقطِه الله تعالىٰ تفضلاً ولطفاً منه. امّا ما توجيه التوبة فهو استحقاق الثواب.

وقبول التوبة من العبد هو ضمان الثواب له عليها، لذا كانت التوبة من آدم علىٰ هذا الوجه، اضف الىٰ ذلك ان توبة الانبياء لا توصف بتوبة سائر العباد، لان منزلة الانبياء ومعرفتهم لعظمة الله وقدرته وجبروته وسلطانه غير معرفة البشر، لذا يستعظمون من انفسهم الزلل اليسير ولو كان علىٰ سبيل ترك الأولىٰ؛ فيستديمون التوبة والاستغفار مدى وجودهم في الدنيـا، وهذا هـو الانقطاع الىٰ الله سبحـانه والرجوع اليه في كل آنٍ، وذلك مما يثاب عليه العبد ويؤجر.

انتهينا من الاجوبة عن السؤآلات المتقدمة، بقي الكلام في تعريف التوبة وشرائطها.

---

(١) انظر تفسير العياشي ج ١ ص ٣٢، تفسير البرهان ج ١/ ص ٧٥، البحار ج ١١/ ص (٢١١ ـ ٢١٢).

فصل في التوبة

التوبة والانابة والاقلاع في اللغة نظائر، وضدّ التوبة الاصرار، وأصل التوبة هو الرجوع عما سلف والندم علىٰ ما فرّط والانقطاع الىٰ الله. والتوب مصدر للفعل تاب واسم فاعله تائب ومن صِيغ المبالغة لاسم الفاعل هو فعّال، توّاب بمعنىٰ كثير التوب وكثير الندم والانقطاع وهذا ما يصدُق علىٰ العبد.

وقد وصف الله نفسه بأنّه توّاب رحيم فهل يراد به المعنىٰ السابق..؟ كلا، لان المعنىٰ المتقدم يختص من ارتكب الذنب وهو العبد. اذن لا بد من معنىٰ آخر، وهذا المعنىٰ الآخر هو أنّه ليقبل التوبة من عباده، فالله تائب علىٰ العبد بقبول توبته، والعبد تائب الىٰ الله تعالىٰ بندمه على معصيته.

وقبول التوبة ليست واجبة علىٰ الله تعالى، وانمّا قبولها من باب اللطف الرّباني والاحسان الدائم، اذن هو سبحانه متفضّل علينا بقبول التوبة، ومما يؤكّد هذا المعنىٰ: خاتمة الآية التي في صدر البحث، إذْ خُتمت بكلمة (الرحيم). وهذه الصفة دلّت علىٰ ان قبول التوبة هي رحمة الٰهية ونعمة انعمها الله علىٰ عباده، ثم كلمة توّاب التي جاءت علىٰ صيغة الكثرة تأكيد آخر على قبول التوبة، وإلاّ كان يقول: هو التائب ـ علىٰ صيغة اسم فاعل ـ ومعلوم ان هذه الصيغة لا تعطي معنىٰ الاهتمام للتوبة فهي اقل بلاغة من سابقتها.

فالتوبة كما عرفت، من العبد هو رجوع العبد الىٰ الله بالطاعة والانقياد بعدما عصىٰ وطغىٰ والتوبة من الله تعالى هو رجوعه بالعطف على عبده بألهامه التوبة اوّلاً ثم قبوله اياها من العبد ثانية، لذا إنّ لله توبتين وللعبد واحدة بين التوبتين، قال تعالىٰ: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾[1]. بمعنىٰ وفقهم او الهمهم التوبة ليرجعوا ثم اذا رجعوا قَبِل توبتهم، لانه هو التواب الرحيم.

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٨.

شروط التوبة:

من اهم شروط التوبة هو الندم علىٰ ما مضىٰ من القبيح - ارتكاب الذنب - والعزم علىٰ ان لا يعود الىٰ مثله في القبح، وقد اجمع المسلمون علىٰ سقوط العقاب عندها واختلفوا فيما عداها، ولا يقتصر الندم علىٰ ترك القبيح الذي امرنا الشارع بتركه، بل يشمل ايضاً الندم علىٰ ترك المندوب حتى لا يغفل الانسان عن طاعة ربه ولا يبتعد عن ساحة لطفه ورحمته، بل ان ترك المندوب ربما يكون مقدمة لارتكاب المكروه أو الوقوع في المحذور.

وقد حثّنا الله عزّ وجل علىٰ التوبة من الذنب والاقدام علىٰ الطاعة والاستغفار في كلّ لحظة، وضمن لنا المغفرة وقبول التوبة وانزال الرحمة والرضوان وفي ذلك شواهد كثيرة في القرآن، منها قوله تعالىٰ: **﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه﴾**[1]. وقوله تعالىٰ: **﴿وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدىٰ﴾**[2]، وقوله تعالىٰ: **﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم﴾**[3]. وقوله تعالىٰ: **﴿إنّ الله يحبّ التوابين ويحب المتطهرين﴾**[4] الىٰ ما شاء الله من الآيات الكريمة التي هي اكثر من (٢٠) آية وردت فيها كلمة التوبة ومشتقاتها، ولا يخفىٰ ان التوبة هي عبادة رغّب اليها الجليل علىٰ انها واجبة من العبد[5] وهي تكشف لنا حقيقة عبودية الانسان لله سبحانه من جهة، واحتياج الانسان الىٰ الله الغني في كل الامور والاحوال من جهة اخرىٰ.

ولا فرق في ان تكون التوبة من المعاصي والكبائر أو ان تكون التوبة من الصغائر واللّمم، وعلىٰ اي حال فالتوبة واجبة والشارع المقدّس اكدّ ذلك والخطابات القرآنية صريحة، قوله تعالى: **﴿يا ايها الذين آمنوا توبوا الىٰ الله توبة**

---

(١) سورة المائدة الآية ٣٩.
(٢) سورة طه الآية ٨٢.
(٣) سورة الاعراف الآية ١٥٣.
(٤) سورة البقرة الآية ٢٢٢.
(٥) البحار ج ١١/ص ٢١٢.

نصوحاً﴾(١). وقوله تعالىٰ: ﴿وتوبوا الىٰ الله جميعاً ايّها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾(٢).

وخلاصة الموضوع نقول التوبة شأنها شأن المريض الذي يطلب الشفاء فَيصِفَ له الطبيب نوعين من الدواء: الاول يسمىٰ بالتنقية والثاني يسمىٰ بالتقوية، فالاوّل سلبيّ والثاني ايجابي، ويندرج تحت القسم الاوّل مراتب اربع هي: تفريق ونقض وترك ورفض. والتفريق هو الفصل بين الشيئين، والنقض رفع الاشياء المستحقرة عن الشيء الاصل، موضع القذارة عن الملابس، والترك هو الانقطاع عن الشيء والرفض هو الترك مع اهمال وعدم مبالاة.

تأويل الآية بالدليل الروائي

في البحار محكي عن الدّر الثمين: ان آدم عليه السلام رأىٰ ساق العرش واسماء النبي صلىٰ الله وآله وسلم والأئمة عليهم السلام فلقّنه جبرائيل دعاءً: قل يا حميد بحق محمد يا عالي بحق علي يا فاطر بحق فاطمة يا محسن بحق الحسن والحسين ومنك الاحسان. فلما ذكر الحسين سالت دموعه وانخشع قلبه وقال يا أخي جبرئيل في ذكر الخامس ينكسر قلبي وتسيل عبرتي، قال جبرئيل ولدك هذا يصاب بمصيبة تصغر عندها المصائب، فقال يا اخي وما هي، قال: يقتل عطشاناً وحيداً غريباً فريداً ليس له ناصر ولا معين ولو تراه يا آدم وهو يقول واعطشاه واقلة ناصراه حتىٰ يحول العطش بينه وبين السماء كالدخان فلم يجبه احد الا بالسيوف وشرب الحتوف فيذبح ذبح الشاة من قفاه وينهب رحله اعداؤه وتشهر رؤوسهم هو وانصاره في البلدان ومعهم النساء كذلك سبق في علم الواحد المنان، فبكىٰ آدم عليه السلام وجبرئيل بكاء الثكلىٰ(٣).

---

(١) سورة التحريم الآية ٨.

(٢) سورة النور الآية ٣١.

(٣) البحار ج ٤٤/ ص ٢٤٥ نقلاً عن كتاب الدر الثمين.

(اقول) لا يستبعد من ان تكون الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه قد تضمنت بعض المضامين المخصوصة لاصلاح الفاسد من الامور ولا شك ان معصية آدم التي ذكرت في القرآن كان اصلاحها التوبة والاستغفار والدعاء، وقد اشارت الاخبار المتظافرة من اهل البيت عليهم السلام ان هذه الكلمات هي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلي وفاطمة والحسن والحسين، لذا دعا بها آدم عليه السلام ربّه فتاب عليه، والله العالم بحقائق الامور[1].

وفي تفسير البرهان باسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربّه فتاب عليه قال سأله بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلاّ تبت عليّ فتاب عليه[2]، وفيه سبعة عشر حديثاً بطرق مختلفة تفسر الكلمات بالخمسة المعصومين عليهم السلام بألفاظ متقاربة فراجع.

وكذا اخرجه ابن النجار عن ابن عباس وذكره السيوطي في الدر المنثور[3].

---

(١) انظر تفسير العياشي ج ١/ص ٤١.

(٢) تفسير البرهان ج ١/ص ٨٧ ط٢، طهران، وكذا في مناقب ابن المغازلي ما لفظه هذا، قال: اخبرنا احمد بن محمد بن عبد الوهاب اجازة اخبرنا ابو احمد عمر بن عبيد الله بن شوذب حدثنا محمد بن عثمان قال: حدثني محمد بن سليمان بن الحارث حدثنا محمد بن علي بن خلف العطار حدثنا حسين الاشقر حدثنا عمرو بن ابي المقدام عن ابيه عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس قال: سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، قال: سأله «بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين الا تبت علي» فتاب عليه، المناقب لابن المغازلي ص ٦٣ ط المطبعة الاسلامية طهران.

وكذا نقل منه العلامة القندوزي الحنفي في ينابيع المودّة/ص ٩٧ وكذا في تفسير اللوامع ج ١/٢١٩.

(٣) الدر المنثور ج ١/ص ٦٠.

الفصل الرابع

في الحقوق

تعريف الحقوق:

الحقوق مفردها الحق وهو نقيض الباطل وربّما يجمع على حِقان. ويستعمل الحق مصدراً مؤكّداً لغيره، كما لو قلت هذا عبد الله حقاً. واذا كررت هذا المصدر يعني قصدت به الزيادة في التأكيد.

والحق يراد به الواجب أو الثابت:

وحقَّ الامرُ يَحِقّ بالكسر والضم حقاً وحقوقاً: صار حقاً وثبت، قال الازهري كما نقله ابن منظور: معناه وجب يجب وجوباً، قال تعالىٰ: ﴿فحقّ عليهم القول﴾[1]. اي وجب عليهم الوعيد، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ويحقّ القولُ علىٰ الكافرين﴾[2] اي يجب عليهم الوعيد بكفرهم. وكذا قوله تعالىٰ: ﴿لقد حقّ القول على اكثرهم﴾[3] اي ثبت عليهم هذا القول ووجب لهم لانهم ممن عُلم من حالهم انهم يموتون على الكفر. كما قال فخر الدين الطريحي.

ويحق الشيء يثبته ويظهره، قوله تعالى: ﴿ويحقُّ الله الحقَّ﴾[4]. اي يثبته ويظهره.

---

(١) سورة القصص الآية ٦٣.
(٢) سورة يس الآية ٧٠.
(٣) سورة يس الآية ٧.
(٤) سورة يونس الآية ٨٢.

وحقيق، خليق قوله تعالىٰ: ﴿حقيقٌ عَلَي ان لا اقولَ على الله الاّ الحق﴾[1] في معرض الخطاب حكاية من موسى عليه السلام في قوله اي خليق عليّ، وموسى عليه السلام اعرف بنفسه ان يصفها بالصدق وان لا يقول شيئاً علىٰ الله الا وهو الحق.

وحقيق عَلَي: واجب علي.

والحَقُّ: هو اسمه سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ذلك بان الله هو الحقُّ وأنّ ما يدعون من دونه هو الباطل﴾[2] وقوله تعالى: ﴿بانّ الله هو الحقُّ المبين﴾[3].

وقيل الحق: من صفاته.

وقال ابو اسحاق الحق: امر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما أتىٰ به من القرآن والحقُّ واحد الحقوق والحَقَّة والحِقَّة أخصُّ منه وهو في معنى الحق قال الازهري كما في اللسان... ومنه حديث عمر لما طُعِن أو قِظَ للصلاة فقال: الصلاة مقضيّة إذن ولا حقَّ مقضيّ غيرها، يعني أن في عنقه حقوقاً جمّة يجب عليه الخروج عن عُهدتها وهو غير قادر عليه، فَهَبْ أنّه قضىٰ حقّ الصلاة فما بالُ الحقوقِ الأخر؟!! اذن الحقوق يراد بها الواجبات او الثوابت.

مع علماء القانون

لقد مجّدَ العالم الغربي الثورة الفرنسيّة وبالغ في احترامها، لانها ثورة ضد الفساد السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ولانها جاءت بمبادىء العدالة والمساواة والاعتراف بالحقوق الانسانية و.. و... على حدّ زعمهم.

ثم جاء علماؤهم فعرّفوا الحقوق بعدّة تعريفات منهم:

الفيلسوف والعالم الفرنسي فيكتور كوزن Victor Cousin (١٧٩٢ - ١٨٦٧ م) قال الحق من الحقيقة وهو جزء الانسانية.

---

(١) سورة الاعراف الآية ١٠٥.
(٢) سورة الحج الآية ٦٢.
(٣) سورة النور الآية ٢٥.

وقال العالمان الفرنسيان كولن وكپتيانت Colin, Capitant الحق الامتيازي (الفردي) هو حق نوعي للافراد يعرف من خلال ارتباط البعض بالآخر امّا جان جاك روسّو Jean Jacques Rousseau (١٧٧٨ م) قال:

الحق والعدل امران سماويّان ومن الله سبحانه.

وقال آخر الحق هو اساس العدل.

الحقوق علم أم فن..؟

اختلف علماء القانون في تأسيس هذا العنوان فمنهم استعمل «علم» لاضافته الى كلمة الحقوق والبعض استفاد من كلمة فن.

ومما لا يخفىٰ، ان البحث ليس هو من صلب موضوعنا، بل من شأن الدارسين للقوانين التي تدرّس في جامعات ومعاهد مختصة بشأن الحقوق العامة والخاصة، الفطرية منها والطبيعية، الفردية وغيرها...

الا أننا وجدنا من الفائدة ان نشير الى هذين المفهومين اعني: علم الحقوق وفن الحقوق بإشارة عابرة.

قال الرومان انّه فن.

وقال آخرون علم الحقوق مرادف احياناً لفن الحقوق، لكن من جهتين:

الاولىٰ: اذا كان المُدافع او الوكيل ـ المحامي ـ في دعوىٰ ما في مقام الدفاع عن الشخص الموكِّل ـ بالكسر ـ وهذا يعني ان الوكيل لا بد ان يكون مُلِمّاً بكل جزئيات القضية الموكَّل فيها من جهة، ومحيطاً بالقوانين والبنود التي سنّتها الحكومة والتي هي صالحة في التمّسك بها حال الدفاع، او قل ان يكون الموكَّل مطلّعاً على الادلّة التي سيتّخذها مباني واسساً في حسم القضية لصالح الموكِّل من جهة اخرى.

الجهة الثانية: فن الحقوق يرادف علم الحقوق في مجال الكشف عن القواعد والفقرات القانونيّة التي سنّتها الحكومة لتكون تلك الفقرات من القانون قابلة للإستفادة منها في دعوى المخاصمة كدليل لرد دليل الخصم مرّة، واخرى كأستئناس فيما لو كان المدّعي او الوكيل في معرض البيان عن ملابسات القضيّة.

ومهما يكن من شيء سواء اطلقنا علىٰ الحقوق انه علم او فن، فلا يهمنا الاختلاف بقدر ما يعنينا الفرد الذي يكون طرفاً للحقوق بل موضوعاً لها في هذه المحاضرات التي سنتناول فيها بعض الحقوق العامة والخاصة، كما سنتطرّق الى بعض الحقوق الفطرية والطبيعية، وهكذا بعض الحقوق التي سنرىٰ من الضروري التعرض لها.

الانسان موضوع الحقوق

الانسان خلق وهو مجبول على الفطرة الانسانية التي من مستلزماتها هو الاجتماع والألفة وحبّ البقاء، ومن جملة معاني الانسان أُنسه بالآخرين، ولمّا كان الفرد هو النواة للاسرة، كانت الاسرة هي النواة للمجتمع. ومنذ القديم كان الانسان يحرص كل الحرص على حبّ البقاء، وحبّ الترقيّ، وحب الاجتماع، ولكن ما هي الوسيلة الى ذلك...؟ فنظر منذ الوهلة الاولىٰ الىٰ صيانة ذاته، وبقاء نوعه والتكفّل باحتياجاته الماديّة والمعنويّة، إلّا ان ذلك لا يكون فيما لو عاش منفرداً قد آثر العزلة علىٰ الاجتماع، بعيداً عن ابناء جنسه وقومه. فمهما اراد بعزلته ان يتكفّل بنفسه لقضاء حاجياته الخاصة، ما كان بمقدوره ان يفعل ذلك.

لهذا فأنّ القرآن الكريم سبقت منه اشارة مباركة الى هذا المعنى فقال جل شأنه:
﴿يا ايّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا...﴾[1].

إذاً التعارف والتآلف بين افراد الجنس الواحد كان منظوراً في علم الله سبحانه بل ورغّب فيه حتى يكون التكافل الاجتماعي في الجامعة البشرية، وبواسطته تحلّ مشاكل الافراد، وتصاغ لهم الحياة المثالية الصالحة ضمن اطاعته لقوانين السماء.

وموضوع الحقوق هو الانسان، فبين ماله حق، وبين ما عليه حق.

لهذا ان الفرد الواحد لا بد أن يعترف بان جملة من الحقوق مطالب بها لانها حق الغير، كما ان جملة من الحقوق هي له فمن حقّه ان يطالب بها.

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

اما القسم الاول ـ حقوق الخير ـ فعلىٰ رأسها حق الله سبحانه لـذا فالمرء مطالب باداته. وقد بيّن هذا الحق الانبياء والمرسلين في دعوتهم الناس الىٰ التوحيد والايمان الخالص بالله وبرسله وشرائعه المنّزلة، ثم امتثال اوامره والانتهاء بنواهيه، وسيأتي الكلام فيه قريباً إن شاء الله تعالىٰ.

واما القسم الثاني ـ حقوق الفرد الشخصيّة ـ فيكون الفرد الانساني الـوسط المشترك للأخذ والإعطاء وهذا يحصل في اطار عضوية الفرد في المجتمع، اي عندما يؤاثر الاجتماع على العزلة. لانه سيكون هنا عنصراً منتجاً فعليه ان يأخذ كما يعطي، وإلاّ لا يمكن تصوّر الانسان وهو عارٍ عن تلك العضويّة، فاللغة التي يتكلّم بها كوسيلة للتفاهم، والطعام الذي يتناوله كوسيلة للبقاء، واللباس الذي يـرتديـه كـوسيلة لحفظ الجسم وستره، وآلالات التي يستخـدمها كـوسيلة لتـذليـل بعض الصعوبات، وتوفير بعض مستلزمات العيش ـ كل هذا وذاك يحدث بتفاعل الفرد مع الآخر، ولو بهذا القدر البسيط من الاجتماع والألفه، قل عنه الاجتماع البسيط او الساذج، والذي ادنى صوره له الحياة الزوجيّة، او الاسرة التي تتّسم بطابع الاجتماع والتكافل الاجتماعي، والذي قوامه هنا الزوج والزوجة، ومع ذلك لا تخرج هذه الصورة من عنوان الاجتماع.

ولو قلنا بالحياة البدائية للانسان الاوّل، وحتى في العصر الحجري القديم، فان تلك الحياة البسيطة ايضاً لا تخرج عن عالم الاجتماع، لكن بصورة متميّزة غلب عليها طابع السذاجة، ومع ذلك فان عناصر الحياة ومبدأ التفاهم بين الافراد كان قائماً، وهذا هو مبدأ التكافل الاجتماعي يتطّور بتقدم الحضارة وازدهار الحياة بتعقله عند افراد المجتمع الواحد، وهو الذي وضع اسس الاستقرار للفرد وتكفّل له بحياة اكثر طمأنينة ورقياً. وهذا ما اقرّته شريعة السماء منذ اقدم العصور على لسان الانبياء (عليهم السلام).

اما الذي يحفظ تلك الاسس ويصونها من الانحراف او التعدي عليها هي القوى التنفيذّيه المتمّثله بحكومة الانبياء ثم بالسلطات الشرعية التي تستمد شرعيتها من العدالة.

لهذا عرّف دوكي (Leon Duguit) استاذ جامعة بردو، الحقوق: بأنها «عبارة عن القواعد المعيّنة لحفظ سير الفرد في المجتمع على ان تعطى القوّة التنفيذيّة بيد السلطة لضمان تطبيقه والحفظ على عدم انحراف الافراد ثم التنبيه على كل خطأ يحدث»[1].

انواع الحقوق وتفريعاته

لقد عُرف الانسان بطبعه الفطري انه اجتماعي يأنس بغيره، ويرغب الى تكوين العلاقات والروابط الاجتماعية بشكل أو آخر. ولما كانت حاجيات الانسان تتزايد وانها مع التطور الحضاري تتناسب تناسباً طردّياً مما خلق التنافس والتزاحم بين مصالح الافراد، والذي يؤدّي الى المصادمات والاعتداء المباشر لتأمين تلك المصالح الشخصية بشتى الوسائل وإن كان فيها هضم لمصالح الضعفاء او الفقراء.

ففي المجتمعات البدائية الآن وفي العصور القديمة كانت الغلبة للقوي وإن لغة السلاح هي التي تحقق المآرب الشخصية، وهذه هي شريعة الغاب التي لا تقرّها الانسانية ويأباها الضمير والوجدان.

ولما تطورت الشعوب وبلغ بها من الحضارة ما نراه اليوم، سعت الى تنظيم تلك العلاقات وتوفير الحقوق المناسبة للافراد من خلال التطور والازدهار العلمي والحضاري الذي تشهده المجتمعات حالياً. والذي اوجد فكرة التنظيم بين الشعوب هو العقل الانساني الطموح، فتظافرت جهود عديدة من العلماء والمفكّرين لوضع الأسس والقواعد والاصول بين افراد البشرية بعيداً عن منطق القوة والغلبة، وهذا هو علم الحقوق الذي تكفّل بإيجاد السُبل المنطقية المتمثلة بالقوانين والدساتير التي سنّتها ايدي مفكّرين اخصائيين في هذا الفن.

علماً ان هذه المبادرة من اولئك انما حصل بعدما رغبوا عن الشرائع السماوية ونبذوا ما شرّع الله سبحانه لهم.

---

(١) النص مترجم بالمعنى عن الفارسية.

والذي حصل ان علماء القانون في العصور المتأخرة قسّموا الحقوق الى قسمين رئيسيين:

١ ـ الحقوق الداخلية، وهي مختصة بالعلاقات والحقوق المتقابلة بين افراد المجتمع الواحد.

٢ ـ الحقوق الخارجية، وهي مختصة بالعلاقات والحقوق المتقابلة بين الشعوب والحكومات والدول المختلفة.

ثم تنقسم تلك الحقوق المتقدمة الى حقوق عامة وحقوق خاصة.

اولاً ـ الحقوق الداخلية:

أ ـ الحقوق الداخلية العامة ويندرج تحتها:

١ ـ القانون الاساسي للدولة والذي فيه تنظّم حياة ابناء المجتمع، وتحدّد الروابط والعلاقات القانونية والتشكيلات الرسمية.

٢ ـ القانون الاداري، الذي يختص بتشكيلات الدولة الرسمية ووظائفها وامتيازاتها وعلاقاتها بالمجتمع والحدود الخاصة لموظفيها وما يتعلق بمراجعيها ومنتسبيها الرسميين وشبه الرسميين.

٣ ـ القانون الجزائي، والذي يحدّد فيه المتجاوز على حقوق الغير وبيان العقوبة اللائقة، ثم انه يقيّد الافراد بضوابط معينة يمنعهم عن التصرفات المخلّة بأمن الدولة وسلامة افرادها كما يمنعهم من التعدّي على النظام او تجاوزه.

ب ـ الحقوق الداخلية الخاصة ويندرج تحتها:

١ ـ الحقوق المدنيّة: تختص بتنظيم العلاقات العائلية او الاحوال الشخصية كالحقوق المرتبطة بين الزوج والزوجة من نكاح ونفقة والرضاع والطاعة والطلاق والعدّة والميراث والوصاية والقيمومة وغير ذلك.

٢ ـ الحقوق القضائية: وهي القوانين الخاصة التي يتوّسل بها اصحاب الحقوق المهتظمة.

٣ ـ الحقوق الماليّة: وهي القوانين الخاصة المتعلّقة بالشؤون المالية أو

التجارية او الاقتصادية كموضوع الإفلاس والشركة والديون والعلاقات المصرفية مثل الكمبيالات والاوراق المالية والسندات المزوّرة والاسهم وغير ذلك.

والذي يمكن الاشارة اليه في هذه الاقسام الثلاث جملة من الحقوق الاخرىٰ وهي تدخل في اكثر من قسم لتداخل فروعها بعضها مع البعض الآخر نذكر منها:

١ ـ حق الحياة.
٢ ـ حق الابوّة.
٣ ـ حق البنوة.
٤ ـ حق الزوجية.
٥ ـ حق الحضانة.
٦ ـ الحقوق غير المالية.
٧ ـ الحقوق المالية.
٨ ـ حق الملكية.
٩ ـ حق العبور.
١٠ ـ حق التمتع.
١١ ـ حق الاستيفاء.
١٢ ـ حق الانتفاع.
١٣ ـ حق السكن.
١٤ ـ حق الشرف
١٥ ـ حق التعقيب.
١٦ ـ حق العمل والارتزاق.
١٧ ـ الحق الديني.
١٨ ـ الحق المؤجل.
١٩ ـ الحق الحالي.
٢٠ ـ الحق المعلّق.
٢١ ـ الحق المنَجز.
٢٢ ـ حق الرأي.
٢٣ ـ حق التصرّف.
٢٤ ـ حق العبادة.

ثانياً ـ الحقوق الخارجية:

وهي كذلك تنقسم الىٰ:

أ ـ الحقوق الخارجية العامة.

ب ـ الحقوق الخارجية الخاصة.

وهناك تقسيم آخر للحقوق قد تبنّته جملة من الدول، وهو ان حقوقي تلك البلدان جعلوا الحقوق على قسمين هما:

١ ـ الحقوق العمومية.

٢ ـ الحقوق الخصوصية.

والحقوق الخُصوصية تنقسم الىٰ ثلاثة اقسام هي:
أ ـ الحقوق المدنية.
ب ـ الحقوق التجارية.
جـ ـ الحقوق البرّية والبحرية والجوية.

ثم الحقوق المدنية تنقسم الىٰ:
أ ـ الحقوق الطبيعية (الفطرية).
ب ـ الحقوق الفردية.

والحقوق الفردية لها عدة اقسام:
١ ـ باعتبار نوع الحق وهذا ينقسم الى:
أ ـ الحقوق المالية. ب ـ الحقوق العينية. جـ ـ الحقوق الدينية.

٢ ـ باعتبار دائرة التسلّط.
أ ـ الحق المطلق. ب ـ الحق النسبي.

٣ ـ باعتبار الزمن الذي ولد فيه الحق:
أ ـ الحق المنجز. ب ـ الحق المعلّق.

٤ ـ باعتبار دوام الحق:
أ ـ الحق الدائم. ب ـ الحق المؤقت.

٥ ـ باعتبار زمان التنفيذ:
أ ـ حق الحال. ب ـ الحق المؤجّل.

٦ ـ باعتبار ثبوت الحق او عدمه:
أ ـ الحق الثابت. ب ـ الحق المتزلزل.

اهم المدارس في نشوء الحقوق

هناك مدارس عديدة اتخذت من الفرد او المجتمع فلسفة لها وبنت قواعدها واصولها على احد الركائز المتقدمة: ومن ابرز هذه المدارس تلك القائلة بان اصل الحقوق هي الحقوق الفطرية أو الطبيعية .Ecdedu Droit Naturel ou Rationnel

ثم ظهرت مدرسة اخرىٰ اعقاب قيام الثورة الفرنسية الكبرىٰ حيث نادت هذه المدرسة بنظرية (حقوق اصالة الفرد) وقد تسمى ايضاً بنظرية اصالة الارادة. In- . dividualisme

والمتبنون لهذه النظرية اسسوا مكتبهم في القرن ١٨ وجعلوا من ارادة الفرد هو المقياس لبناء الحقوق وتنظيم علاقات الفرد بالآخرين وبالمجتمع والدولة:

وقسم ثالث قال ان الحقوق مرتبطة بالوجدان او الضمير الانساني، وقد برز لهم مكتب بعنوان الحقوق الاخلاقية Ecole Morale du Droit .

وقسم رابع من الحقوقيين قالوا ان الحقوق قديمة ولها جذور تاريخية واطلق علىٰ مكتبهم Ecole Historique du Droit اي الحقوق التاريخية.

وقسم خامس يعتقد بحقوق اصالة المجتمع Socilogisme Juridique وقد برز هذا المكتب في نهاية القرن التاسع عشر ونجح وتوسّع في القرن العشرين.

وقسم سادس يرىٰ (حقوق اصالة الواقع) Ecole Realisme du Droit هي الاساس. هذه ابرز المدارس في تعيين اصل الحقوق.

من الامور المسلّمة عقلياً والتي تعتبر من البديهيّات انه كلما ازدادت روابط الافراد فيما بينهم فان حقوقهم كذلك تزداد، ولهذا تحتاج الى تنظيم ادق من قبل الاخصائيين ليسع عملهم جميع الحقوق الانسانية.

والقوانين العادلة دائماً تحظىٰ بالطاعة والاحترام والتقديس وهي المتمثلة بالقوانين السماوية امّا المجتمعات التي ينعدم فيها القانون نجدها مجتمعات بدائية فقيرة، والحقوق فيها مفقودة بل ومهتضمة لأنّ القوي هو المتنفّس الوحيد وهو المتسلط علىٰ الرقاب. فشريعة الغاب هي المتحكمة، والبربرية والوحشية هي السائدة.

بين الشريعة والقوانين الوضعية

عرفت البشرية منذ اقدم العصور الحياة القانونية والنظام العادل الذي حقق للجميع حياة سعيدة مزدهرة بالنعيم الخالص. اذ كانت البشرية تتلقىٰ ذلك النظام العادل من السماء بواسطة الانبياء وعن طريق الوصي الإلهي، فالمشرّع حكيم قدير، والمبلّغ معصوم من كل نقص أو خطأ، فلا يشوب عقله الخطل ولا لسانه الزلل ولا عمله المنكر، بل كل ما يصدر منه ـ النبي ـ فعلاً وقولاً وتقريراً انما هو تنظيم حياة المجتمع وسعادته. وعلىٰ تلك الوتيرة مضت بعض الأمم السالفة فلازمتها السعادة حيثما كانت ممتثلة لأمر السماء ومطيعة لخالقها المتعال، كما ان البعض الآخر من الامم كان حليفها الشقاء لمّا سلكت طريق العصيان وعدم الامتثال لأوامر الله سبحانه.

وسير التاريخ يثبت لنا صوراً عديدة ويحكي عن النكسات التي منيت بها تلك الأمم، كما ان العصر الحاضر هو الدليل الآخر لاثبات شقاء هذه الشعوب عندما تركت شريعة السماء لتتطفّل علىٰ مائدة الحق بل لتتجرّأ علىٰ خالقها وبارئها فتصيغ من عقلها الناقص وتفكيرها السقيم القوانين المضطربة والمتناقضة.

فمن التعسف جداً ان نقارن بين القوانين الوضعية والشرائع السماوية، حيث عرفت ان الشرائع السماوية من صياغة الله سبحانه الذي قدّر فهدى. بينما القوانين الوضعية من صنع الانسان الناقص الذي لا حول له ولا قوّة إلا بالله فهو اعجز من ان يردّ عنه ادنىٰ ضرر او يجلب له ادنىٰ منفعة فكيف يبرمج للآخرين حياتهم القانونية ويمنّيهم بالخير والصلاح والسعادة وكما قيل فاقد الشيء لا يعطيه.

فأين الارض من السماء، وأين الثرىٰ من الثريا، وأين المخلوق من الخالق، وأين الممكن من الواجب، وأين الفاني من الباقي.

فبما أن المقارنة بين الله سبحانه والبشر لا تصح، كذلك لا يصح ان نقارن أو نقيس ما اوجده الله من شرائع بما اوجده البشر لنفسه من قوانين. . .

فالشعوب المسلمة لا تقرّ القوانين الوضعية بل تعارضها وترفضها، مما حدا بالحكومات العميلة المتسلّطة على رقاب المسلمين في العالم الاسلامي ان تلبس القوانين المستوردة من الخارج ثوب الاسلام، بل وتصرّح في مقدمة الدستور المستورد لكي يعمل به، ان الدين الاسلامي هو الدين الرسمي للبلد. لكن الى اي مدىً عملت هذه الدول بالشريعة الاسلامية؟!

انها فقرات او بنود معدودة في الاحوال الشخصية، اما قانون الاحكام المدنية والجنائية بقى متروكاً، ولم يؤخذ من الشريعة الاّ ماندر، والذي استعيض عن الشريعة هي الدساتير الوضعيّة المستوردة من القانون الانكليزي أو الفرنسي او البلجيكي او الالماني.

ثم كيف تكون المقارنة بين الشريعة الثابتة والقوانين المتغيّرة؟... الشرائع السماوية نزلت من لدن حكيم خبير. وما نزل منه سبحانه كان بقدر معلوم، الذي يحتاج اليه البشر، قوله تعالىٰ: ﴿... الذي خلق فسوّىٰ، والذي قدّر فهدى﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿ ان الله بالغ امره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿وكان امر الله قدراً مقدوراً﴾[5].

وقال تعالىٰ: ﴿وإن من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم﴾[6].

ان الشريعة السماوية هي احد النعم التي وهبها الله سبحانه لعباده، كي ينعموا بها ويقطعوا دابر الفساد والمفسدين بواسطتها، ولكي تزدهر حياتهم ويسعدوا في الدنيا والآخرة، غير ان البشر، كفر بهذه النعمة، فبدّلها وغيّرها، واستعاض عنها بما اوجده من نظر قاصر وعقل ناقص..

---

(١) سورة الاعلى الآية ٣.

(٢) سورة الطلاق الآية ٣.

(٣) سورة الرعد الآية ٨.

(٤) سورة الاحزاب الآية ٣٨.

(٥) سورة الحجر الآية ٢١.

(٦) سورة ابراهيم الآية ٢٨.

قال تعالىٰ: ﴿**الم تر الىٰ الذين بدّلوا نعمة الله كفرا**﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿.. **ومن يبدّل نعمة الله من بعدما جاءته فإن الله شديد العقاب**﴾[1].

ان كلمات الله سبحانه لا تبديل لها، ونظامه الخالد كذلك لا يدخله التبديل والتغيير، انما سنّة الله في خلقه، وهو البصير الحكيم الذي احكم كل شيء صنعه. ﴿**سنّة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً**: ﴾[2].

فكما لا تبديل لخلق الله كذلك لا تبديل لكلمات الله، فكل شيء أوجده الله سبحانه من اختلاف وتباين في المواهب والقدرات إنما بحكمة صانع قدير ثم وكلَ تنظيم الحياة بكل مرافقها الىٰ إتّباع شريعته المنزّلة ـ من السماء على انبيائه اذ قال سبحانه ﴿**ذلك الدين القيم**﴾[3] وباتّباع الدين تكون السعادة والخلاص حيث قال عزوجل: ﴿**ذلك هو الفوز العظيم**﴾[4].

الشرائع الموسوية والعيسوية مضت عليها مئات السنين وهي لم تتغير من لدن خالقها، بل حرّفتها يد الفساد والاهواء والتخريب، مما كان ـ على اثر التحريف ـ وجوب نسخها واستبدالها بالشريعة الاسلامية لتحمل قوانين ثابتة في الطبيعة، ويكون سبحانه هو الحافظ لها: ﴿.. **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون**﴾[5].

ومنذ ان تكاملت الشريعة الاسلامية بنزول الآية المباركة: ﴿**اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا**﴾[6].

والى اليوم والذي مضت علىٰ نزولها (١٤) قرناً لم تصل يد التحريف أو التغيير لهذه الشريعة المباركة.

---

(١) سورة البقرة الآية ٦١.
(٢) سورة الاحزاب الآية ٦٢.
(٣) سورة الروم الآية ٣٠.
(٤) سورة يونس الآية ٦٤.
(٥) سورة الحجر الآية ٩.
(٦) سورة المائدة الآية ٣.

ولو اخذنا الشريعة الاسلامية كمثال للشرائع السماوية الثابتة فان الاسلام ومنذ (١٤) قرناً من الزمان لم يتغيّر ولم يتبدّل، ففي صدر الاسلام وخلال القرن الاول الهجري دوّى صوت (الله اكبر) و (محمد رسول الله) كل العالم اذ تسمعه في اقصى المشرق والمغرب، ورايات الاسلام اخذت ترفرف. في كل بقاع الارض، وذلك بفضل تطبيق حكم الله الذي ليس فيه إلاّ العدل والنجاة.

بينما تجد القوانين الوضعية في تغيير مستمر منذ صدورها والى اليوم، والذي لم يمضِ عليها اكثر من ثلاثة قرون، فعشرات التعديلات دخلتها، ومئات الاضافات زيدت عليها، كما ان الحذف والتغيير مستمر، وكل ذلك فان طريق هذه الدساتير في تكاملها سوف يؤدي بها للاقتراب من شريعة السماء، واخيراً سوف يضطر المقنّنون والحقوقيّون ان يهدموا بناءهم ونظرياتهم ليؤوا الى الكهف الحصين، وصنع الباري المتين، وكلماته التي لا تبديل لها.

الفوارق المبدئية بين الشريعة والقانون الوضعي

هناك مفارقات عديدة بين الشريعة والدساتير الوضعية نذكر اهمها:

اوّلاً: الشريعة من صنع حكيم خبير، وضعه للبشر الذي اوجده فركّبه من العقل والشهوة، فهو ادرىٰ بما يصنع، وهو سبحانه اعلم بحاجة البشر من البشر انفسهم.

اما القانون الوضعي، فهو من صنع ناقص محتال، لا يستطيع ان يجلب لنفسه نفعاً، كما لا يقدر ان يدفع ضرراً عنها، والذي شأنه كذلك فهو أعجز من أن يُصيغ نظاماً يضمن فيه سعادة البشرية جمعاء.

ثانياً: الشريعة تنزل وفق متطلبات البشر وتتكامل قبل رحيل مبلغها وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتكون ملبّية لكل مرافق الحياة ما دامت البشرية.

اما القانون فيولد وهو متعثر بالاخطاء والتناقض، ثم انه محدود القواعد، ولا يتكفّل بتنظيم الحياة بكل ادوارها، بل لا بد من تغيير ما وضعه اولاً اما بزيادة أو نقيصه، وهكذا لا تجد له ثبات او استقرار طالما الحياة وعلاقات الافراد في نمو وتزايد.

ثالثاً: الشريعة دستور الٰهي منظّم عالجت صوراً متعددة للحياة فشملت كل الجوانب والعلاقات العامة والخاصة.

اما القانون فبدأ بالاسرة أو القبيلة باعتبار هي اللبنة الاولى للمجتمع، واخذ يتطور من خلال سيادة رئيس القبيلة، وسيادة الاعراف والتقاليد في المجتمع البدائي، ثم وصل الىٰ شكل نظريات علمية خلال القرن التاسع عشر.

رابعاً: الشريعة تناولت الامور الغيبية وما وراء الطبيعة والايمان بالله ورسله، ثم صلة العبد بخالقه.

اما القانون فقد اهمل ذلك كل الاهمال، بل انه لا يعترف بها قط، كما في الدول الاشتراكية والشيوعية.

خامساً: الشريعة تناولت القضايا الاخلاقية والسلوكية الفردية والفضيلة كعامل مهم لتهذيب الغرائز، اضافة الىٰ الجنبة التشريعية للحقوق المدنية والجزائية.

اما القانون فاقتصر علىٰ المعاملات المدنية والجزائية فحسب.

سادساً: الشريعة تهذّب النفس البشرية عندما يكون الفرد واحداً أو عضواً في المجتمع، كما انها تهذّب النفس في خلواتها.

فالدين عامل رقيب وحسيب للانسان، لانبثاقه من فكرة الحلال والحرام، والحساب والعقاب والجزاء.

ثم ان الايمان بالله وبيوم الحساب له اثر كبير علىٰ تصرفات الفرد في السّر والعلانية، لان هناك عقاب دنيوي وثانٍ أخروي لمن يرتكب الذنب او المعصية قوله تعالىٰ: **﴿ان الذين يحبّون ان تشيع الفاحِشة في الذين آمنوا لهم عذاب اليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وانتم لا تعلمون﴾**[1].

وقوله تعالىٰ: **﴿ومن اظلم ممّن منع مساجِدَ الله ان يذكر فيها اسمه وسعىٰ في خرابها اولئك ما كان لهم ان يدخلوها الا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾**[2].

اما القوانين فان سلطتها علىٰ النفس البشرية ضعيفة، بل منعدمة، والسبب في ذلك إن واضعي القانون انما هدفهم ارضاء الجمهور فحسب. وكيفما كان فان القوانين تنظر الىٰ الجزاء الدنيوي ولا تعبأ بالجزاء الاخروي.

سابعاً: منزّل الشريعة هو الله سبحانه الغني عن العباد، والعباد هم الفقراء المحتاجون اليه. وما ينزله سبحانه، فيه مصالح البشرية وتنظيم شؤونها وبالمقابل لا

---

(١) سورة النور الآية ١٩.

(٢) سورة البقرة الآية ١١٤.

مصلحة له ولا انتفاع يرقبه، بل ان لطفه ورحمته تنظر الىٰ خلاص الانسان وسعادته.

اما صانعو القانون، فهم يخضعون للاهواء والنزوات النفسية، لانهم بشر، فتغلبهم العواطف، وعلىٰ اقل تقدير فهم لا يغفلوا ما لذواتهم من مصالح، فيترجموا ما بوسعهم جملة من تلك الامتيازات ثم يلبسونها ثوب القانون حتىٰ تكون فيما بعد نافذة المفعول بالقوّة الاجرائية (التنفيذية).

وبالنتيجة سوف تنحاز هذه القوانين الى طبقة ما، كأن تكون تلك الطبقة لها توّجه اقتصادي فتصنع القوانين لخدمتها، أو أن تكون لها توجه استعماري فتصيغ القوانين التي تمنحهم حق السيطرة على الشعوب والبلدان المستضعفة، أو أن يكون لها توجه ديني او. . . وهكذا مما تفقد هذه القوانين عدالتها فتبعدها عن الحق.

لقد آثرت ان اعرّف القانون ثم الشريعة ثم اذكر بعد ذلك نموذجين من القوانين الوضعية، احدهما القانون العراقي والآخر القانون الباكستاني والتعديلات التي طرأت عليهما ومدىٰ فشل القوانين الوضعية قبال الشرائع السماوية وصلاحيتها لكل زمان ومكان.

القانون

تطلق لفظة قانون على مجموعة القواعد والمبادىء والانظمة التي يصنعها اهل العقد والحل في امّة من الامم، وغايتها تنظيم شؤون البشر الاجتماعية والاقتصادية انطلاقاً من الحاجة الملحّة للجماعة، والرغبات المتزايدة في كل عصر لها.

ثم ان صياغة القوانين في مجتمع ما يختلف عن قوانين المجتمع الآخر، والذي يقنّن لفترة ما قد لا يصلح لفترة اخرى، لان حياة الامم والشعوب بعضها مختلف عن البعض الآخر، في العادات والتقاليد والاعراف والامزجة والرقي في الحضارة والمعرفة. .

ولما كانت تلك القوانين هي من صنع اهل العقد والحل، اي من له سلطة تفوق سلطة الافراد، اما بقوة السلاح او بقوّة المال او بقوة السياسة، فان المقنّنين

في الاعم الغالب يتعدون عن الاعتبارات الدينية والاخلاقية، فيتناسون الفضيلة والكرامة ولا يقيما لهما اي وزن او اعتبار، مما انتجت تلك القوانين صيغ وبنود لا تصلح لتهذيب البشر، ولا تنظم غرائزهم الشخصية وفق المبادىء الفاضلة والانسانية الحقة.

اذن فلا غرابة لو وجدنا الوان الجرائم والتعدي على حقوق الآخرين شائع بينهم.

تاريخ القانون

لفظة قانون مأخوذة من (كانون) وهي المسطرة التي تستعمل لقياس الامور وتسويتها، ثم صارت تلفظ قانون، وهي مأخوذة من اصل يوناني، يراد بها معنى القاعدة، ثم استعملها العرب في فترة متأخّرة بعدما نضج استعمال الكلمة أبـان العصر العباسي الاول وذلك بنقل كتب المنطق من اليونانية الى العربية، وهكذا كتب الفلسفة والرياضيات، والهندسة، ثم استعملها المسلمون للدلالة على مقياس كل شيء فرعي لقاعدة كلّية، ذات الاجزاء المتعددة المصاديق، كما ان المسلمين لم يستعملوا الكلمة كمصطلح شرعي أو حكم.

الشريعة لغة واصطلاحا

الشريعة في اللغة مورد الماء الذي يقصد للشرب، ثم استعملت في الطريقة المستقيمة، واضافة الشرع الى الاسلام اصطلاحاً يراد به ما شرّعه الله لعباده في العبادات والمعاملات، وما يجري مجرى السنن والاخلاق، وذلك متمثّل بالدين، قال سبحانه: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾[1].

الشريعة ما كان لجميع الانبياء وهي الطريقة الخاصة لنبي من الانبياء او لامة من الامم والنازلة من السماء. والمنهاج: الطريقة المختصة بالنبي؛ اي سيرته، وبعبارة اخرى السلوك، أو السبيل الواضح المختص بنبي ما دون بقية الانبياء عليهم السلام، فالشريعة تطلق على كافة الاديان فلموسىٰ شريعة سماوية ولعيسىٰ شريعة

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٨.

سماوية ولمحمد صلى الله عليه وآله وسلم شريعة كذلك، او قل لكل من التوراة والانجيل والقرآن شريعة خاصة، كما ان لكل نبي منهاجا وطريقة خاصة به.

المشرّع الأول

المشرّع الحقيقي والاول هو الله سبحانه وتعالى، لذا من الخطأ ان نطلق على القوانين الوضعية بالتشريع، اذ عرفت كما سبق ان الشريعة هي الطريقة المستقيمة.

اما القوانين ليس فيها الاستقامة ولا المنهجيّة العادلة. وانما هي مجموعة نظريات وتوصيات، أو قل عنها مبادىء يتخللها التناقض والاضطراب وعدم الاستقرار مما يكون فيها الظلم والاجحاف والاستغلال.

السلطة التشريعية في المفهوم الاسلامي

التشريع في المفهوم الاسلامي حق خاص لله سبحانه وتعالى، وليس لأحد من البشر له هذا الامتياز وقد بيّنا في ما تقدم صورة موجزة عن سَن القوانين في المجتمعات غير الاسلامية، والذي يتولى مهمّة سَن القوانين ـ وهي من مهام السلطة التشريعية ـ هو مجلس البرلمان او ما يسمى بالمجلس النيابي.

اما في اطار الحكم الاسلامي فالذي يتولى موضوع الاشراف على اللوائح القانونية ويصادق عليها هو مجلس الشورى الذي تنتخب الامة اعضاؤه حسب الشروط المعيّنة التي يرسمها الدستور.

إلا ان مجلس الشورى ليس له حق التشريع، لأن التشريع حق محض وخالص لله سبحانه، وقد سنّ الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم اموراً للمسلمين وقد اقرّها سبحانه فاصبحت جزءاً من الشريعة الغراء. فإذا قلنا ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم له حق التشريع فهو من باب المجاز.

على كل، بعد عصر التشريع أنيطت مهمة تشخيص الاحكام العبادية والمعاملية بيد الفقهاء العدول، حيث ما من مسألة او مشكلة تستحدث الا وجوابها

او حلّها كامن في نصوص القرآن الكريم او السنّة الشريفة، ثم ان العقل والاجماع يرشدان الى بعض تلك الحلول المنصوص عليها او المستنبطة.

امّا مهمة مجلس الشورى فهو التخطيط لمرافق البلاد المتعددة حسب الضوابط الاسلامية، والذي يقوم بهذا العبء اخصّائيون ومن ذوي الاطلاع والخبرة بالشريعة الاسلامية والذين يقفون على مشاكل البلاد عن كثب ودراية.

وهؤلاء يستفادون من النصوص الشرعية الواردة في القرآن او السنّة.

القانون الوضعي في العراق ابّان الحكم العثماني

كان القانون السائد في العراق قبل الحرب العالمية الأولىٰ هو القانون العثماني والذي يشمل علىٰ المواد المأخوذة من قانون العقوبات الفرنسي، وقد نُشر قانون العقوبات العثماني في عام (١٨٥٩ م)، ومنذ ذلك الوقت وحتى سقوط الحكومة في العراق بدخول الجيوش البريطانية الغازية، قد ادخلت عليه عدة تعديلات قانونية وكلها كانت رديئة واسوء من سابقتها، ولما كانت تلك التعديلات ايضاً مستوردة من قانون العقوبات الفرنسي، وبطبيعة الحال ليس هناك تشابه بين البلدين ولا نقاط التقاء بين الشعوب الاسلامية والشعب الفرنسي الذي في الغالب يدين بالديانة النصرانية، كما ان الفوارق الاخرىٰ الموجودة بين هذه الشعوب كانت مدعاة لفشل تلك التعديلات التي طرأت علىٰ قانون العقوبات العثماني، لهذا اضطرت السلطة التشريعية العثمانية العليا لإدخال تعديلات اخرى مستوردة من القانون المصري والذي هو الآخر مأخوذ من قانون العقوبات الفرنسي لذا عادت المشكلة مرّة اخرى ومنيت تلك التعديلات بالفشل لانها لم تحقق ادنىٰ اصلاح قانوني عما كان عليه قانون العقوبات العثماني.

نعم قد تكون اوجه شبه بين الشعب المصري والشعب العراقي من حيث الوضع الديني وبعض العقائد السائدة والاعراف، وغير ذلك لما للبلدين من تاريخ عريق واصالة في الحضارة، لكن هذا لا يعني ان القانون المعمول به في كلا

البلدين يكون صالحاً للتطبيق، طالما ان المصدر واحد وهو الاصل المعمول به في فرنسا.

الجيوش البريطانية ـ القادمة من شبه القارة الهندية ـ لما غزت العراق وبعدما ثبّت الجيش اقدامه فيه، عمل الحاكم العسكري البريطاني بالقانون الذي وضعته حكومته لبلاد الهند ابّان غزوهم لها في اوائل القرن التاسع عشر الميلادي، مع اقرار القانون المحلي القائم في العراق، وهو القانون العثماني، لكن بصورة مؤقتة، حتى يتسنّىٰ للحاكم العسكري ان يصدّر قانوناً آخر للبلاد المفتوحة.

قانون العقوبات البغدادي ابان الاحتلال البريطاني

في (٢١) تشرين الثاني (نوفمبر ١٩١٨ م) أصدر الحاكم العسكري الفريق الاول (وليم رين مارشال) قانون العقوبات البغدادي للصلاحيّة المخوّلة له من قبل الحكومة البريطانية.

ثم في تشرين عام (١٩١٩ م) صدر القانون ببغداد واعلن رسميا العمل به. وكان القانون وضع باللغة الانكليزية، وجميع الضباط العسكريين الذين وكلت اليهم مهام ادارة الالوية العراقية، كانوا هم الحكام فيها لذا ان العمل بهذا القانون وبهذه اللغة الاجنبية، نابع من الظروف العسكرية والسياسية التي شملت اغلب المدن العراقية، عدا مدينة النجف الاشرف التي كانت محاصرة من قبل الحاكم العسكري البريطاني ثم شكّل علماء المدينة واعيانها حكومة مؤقتة يديرها اشراف وعلماء النجف[1].

(١) بعدما اصدرت القوات البريطانية المحتلة منشورها الرسمي القاضي بانتداب العراق وكان ذلك في (٣ مايس ١٩٢٠ م) المصادف (١٣٣٨ هـ) فقد تحرّك اهالي الوسط والجنوب من العراق من (٣ شعبان) الى النصف منه من عام (١٣٣٨ هـ) وقد زار وجهاء النجف الامام آية الله محمد تقي الشيرازي في كربلاء وابلغوه وضع الامّة وهياجهم مما اصدر فتوى اولى تمهيدية قال فيها:

«اذا كانت هذه نواياكم وهذه تعهداتكم فالله في عونكم».

ولما تفاقم الامر واتسع الهيجان قام الحاكم العسكري (الميجر بولي) في القبض على الشيخ محمد رضا نجل الامام آية الله محمد تقي الشيرازي وبعض العلماء والوجهاء في كربلاء والنجف. مما ادّى بالامام آية الله محمد تقي الشيرازي ان يعلن فتواه الثانية مساندة للثورة العراقية فقال: «مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين ويجب عليهم في ضمن مطالباتهم رعاية السلم والامن ويجوز لهم التوّسل بالقوة الدفاعية اذا امتنع الانكليز عن قبول مطالبهم».

ثم تلى ذلك تدخل آية الله شيخ الشريعة الاصفهاني - من اكابر علماء النجف - ليرفع مذكرة الى البريطانيين يناشدهم اطلاق سراح نجل الامام الشيرازي وباقي المعتقلين، الّا انّ

ثم اضطرت القوات الغازية فور سيطرتها علىٰ جميع الاراضي العراقية ان تترجم القانون الذي وضعه (وليم رين) من اللغة الانكليزية الىٰ اللغة العربية فأنيطت المهّمة الىٰ احد المترجمين الذين كانوا يرافقون الحملة البريطانية وبقت تلك الترجمة معمولاً بها حتى عام (١٩٤٨ م)، لكن سوء الترجمة والتناقض في فهم بعض النصوص ممّا ادّىٰ إلى الارتباك في تطبيق بعض البنود، فنتج من ذلك ان رفعت مذكّرات وملاحظات الىٰ وزارة العدل العراقية من قبل الحكام والمشتغلين بالقانون.

= الحاكم العسكري العام اعتذر من اجابة هذا الطلب، ثم دارت بين الطرفين مراسلات كان اخرها الاعتذار الصريح الرسمي والذي ابرق (السراي ني ولسن) برقية بتاريخ (٢٢ شوال ١٣٨٨ هـ) الى حاكم الشامية والنجف (الميجر نوربري) ليرفعها الىٰ آية الله شيخ الشريعة.
ولما كانت المراسلات والمفاوضات دائرة بين علماء النجف والحاكم العام العسكري ببغداد والناس في الوسط علىٰ أهبة الثورة، إذْ قام الحاكم البريطاني في لواء الديوانية (الميجر دايلي) بالبطش برؤساء القبائل وامر حاكم الرميثة (اللفتنت هيات) بالقبض على (الشيخ شعلان ابو الجون) رئيس عشيرة الظوالم، وفعلاً قام (اللفتنت هيات) باعتقال (ابو الجون) بعدما جابهه بالكلمات القارصة الشديدة وكان اعتقاله في ١٣ شوال (١٣٣٨ هـ)، ولما اطّلع الشيخ (غثيث الحرجان) علىٰ هذا الامر ارسل عشرة رجال مسلّحين لاخراج «الشيخ شعلان ابو الجون» وتخليصه من البريطانيين، وفعلاً تم اخراجه بعدما اطلقوا النار على حرّاس السجن، وكانت تلك الاطلاقات النارية هي اوّل اطلاقات ثورة العشرين.
وفي النصف من شوال اي بعد يومين من حادثة اعتقال (ابو الجون) ١٣٣٨ هـ اعلنت الثورة في النجف الاشرف وبهذه الثورة جلا الانكليز عن النجف واحتشد الجيش الانكليزي في الكوفة، ثم تشكّلت اوّل حكومة وطنية في النجف بقيادة العلماء وزعماء العشائر وكان اوّل عمل قاموا به في النجف هو:
اولاً: انشأوا مجلساً بلدياً مؤلّفاً من عدة اعضاء منهم:
الحاج عبد المحسن شلاش، وعبد الرزاق شمسة، وحسين آل ظاهر، وكردي الحاج عطية.
ثانياً: اسسوا حكومة محلّية ذات هيئتين كبيرتين:
أ ـ الهيئة الاولىٰ: اعضاء مجلس الادارة يديرها كل من:
شيخ جواد الجواهري ـ رئيساً.
عبد المحسن شلاش ـ ناظر المالية.
السيد مهدي آل السيد سلمان ـ رئيس القوة الاجرائية.
ب ـ الهيئة الثانية: القوّة التنفيذيّة: تتألف من زعماء المحلات الاربع في النجف الاشرف.

لهذا قامت الوزارة بإصدار عدة منشورات ولوائح حول تصحيح بعض الفقرات وبنود قانون العقوبات البغدادي الذي كان عبارة عن قانون مؤقت، صنعه الحاكم العسكري البريطاني.

ثم اضطرت وزارة العدل إلى تشكيل لجنة قوامها:

١ - الدكتور مصطفىٰ كامل، استاذ القانون العام بكلّيتي الحقوق ببغداد والقاهرة.

٢ - عبد الرحمن البّزاز، الحاكم المنتدب لعضوية مجلس التمييز الشرعي ومدرس القانون في كلية الشرطة.

٣ - شاكر العاني، حاكم البداءة غير المحدودة.

لقد اختارت وزارة العدل هؤلاء الثلاث لسابقيتهم في هذا القانون ومعرفتهم بغيره من القوانين الوضعية لعدة دول اجنبية وعربية، ثم لاشتغالهم في المحاكم وحسم الدعاوي. الا ان القانون الذي صدر من (وليم رين مارشال) عام (١٩١٨ م) وحتىٰ اواخر عام (١٩٤٨ م) ادخلت عليه كثير من التعديلات والاضافات والحذف وقد تذكر بعضها حتىٰ يتبيّن للقارىء الكريم ان القانون الوضعي مهما احكمت صياغته وبنوده فهو القانون الوضعي الذي يدخله النقص والتناقض، لان واضعه هو ذلك المخلوق الناقص الا وهو الانسان.

= ج - ثم هناك هيئة صغيرة خاصة تتولّىٰ شؤون الاسراء البريطانيين الذين اسرهم الثوار في معركة الرارنجيّة وكانوا ١٦٠ اسيراً.

امّا الرئاسة الكبرى للحكومة فهي بيد الهيئة العلمية في النجف:

رئيسها آية الله شيخ الشريعة الاصفهاني.

والاعضاء هم: الشيخ جواد آل صاحب الجواهر.

الشيخ عبد الكريم الجزائري.

السيد محمد علي بحر العلوم.

الميرزا مهدي الخراساني.

الشيخ اسحاق الرشتي.

الشيخ موسى زاير دهام.

الشيخ علي الحلي.

الشيخ عبد الرضا ال شيخ راضي.

تعديلات قانونية على الدستور العراقي

ابان الحكم الملكي والجمهوري

١ ـ لقد عُدّل قانون العقوبات البغدادي بموجب البيان المعدّل لقانون العقوبات وقانون اصول المحاكمات الجزائية البغدادي لعام (١٩١٩ م) والمؤرّخ في (٨ يوليو).

٢ ـ وكذا أدخل عليه التعديل بموجب البيان المعدّل لنفس القانون وذلك في (١٩٢٠ م) والمؤرّخ في (٢٠ مارس).

٣ ـ وكذا أدخل عليه التعديل في (١٩٢٣ م).

٤ ـ وكذا ادخل عليه التعديل في (١٩٢٤ م).

٥ ـ وكذا ادخل عليه التعديل برقم (٤٥) لعام (١٩٣٦ م).

٦ ـ أُدخل عليه تعديل بقانون مذيّل تحت رقم (٥١) لعام (١٩٣٨ م).

٧ ـ ادخل عليه تعديل برقم (٣٦) لعام (١٩٣٩ م).

٨ ـ قانون تعديله رقم (٤٨) لعام (١٩٤٣).

٩ ـ وقانون تعديل الذيل رقم (١١) لعام (١٩٤٨).

ثم كانت الصياغة الاخيرة، كما عرفت من اللجنة المشكلة من مصطفىٰ كامل وعبد الرحمن البزاز وشاكر العاني.

١٠ ـ بعد ذلك صدرت تعديلات جديدة ابان الحكم القاسمي، ومن ثم في عام (١٩٦٤ م) سمّي بدستور الجمهورية العراقية المؤقت، وقد صرّح هذا القانون في المادة (الثالثة) منه ان دين الدولة الرسمي هو الاسلام.

القانون الوضعي في الباكستان

بعد انفصال الباكستان عن الهند وذلك في (١٤) آب (اوكست ١٩٤٧) اجتمع زعماء هذا البلد الجديد وقادة الثورة ورجال القانون لوضع صياغة قانونية او دستور يعمل بموجبه ففي مارس (١٩٤٩ م) شرعوا في تنظيم هذا الدستور والذي استغرق عشرين شهراً لترتيبه وقد صرحّوا في احد بنوده ومواده ان الحاكم المطلق هو الله سبحانه والدولة شعارها الرسمي الدين الاسلامي.

في عام (١٩٥٦ م) أُعيد النظر في القانون المعمول به ثم صاغوا دستوراً جديداً والذي فيه سُمّيت الباكستان بـ (جمهوري اسلامي باكستان) وكان قد انتخب لها اوّل رئيس جمهورية وهو الاسكندر ميرزا.

- وفي عام (١٩٥٨ م) أُلغي الدستور السابق واصبح القانون المعمول به هو القانون العسكري الا ان هذا الدستور لم يدم طويلاً بل استمر حتى عام (١٩٦٢ م). والذي أُنيطت رئاسة الجمهورية اليه في تلك الفترة والقائد العسكري للقوات البرّية محمد ايوّب خان إذ تقلّد مهامّه الرسمية في (١٧) شباط (فبروري ١٩٦٠) وفي (٢٥) آذار (مارج) (١٩٦٩) اعفي من منصبه.

- ولما جاء الجنرال محمد يحيىٰ خان الىٰ رئاسة الجمهورية عمل دستوراً عسكرياً جديداً للبلاد. وفي (١٩٧٠) انتخب حزب الشعب (ذو الفقار علي بوتو) رئيساً للحكومة اي رئيساً للوزراء[1].

---

(١) الاختيارات المطلقة والصلاحيات القانونية مرّة تكون بيد رئيس الوزراء ومرّة تنتقل لتكون بيد رئيس الجمهورية فمتىٰ ما كانت بيد رئيس الوزراء فتكون رئاسة الحكومة بيده والا تنتقل الىٰ رئيس الجمهورية هذا ما حصل في الباكستان زمن ضياء الحق وغيره.

ـ ثم في (١٤) آب (اوگست) (١٩٧٣) انتخب ممثلو الشعب قانوناً جديداً لجمهورية الباكستان.

ـ بعد سبع سنوات من حكومة (علي بوتو) حدث الانقلاب العسكري بقيادة الجنرال (ضياء الحق) والذي عمل علىٰ تغيير الدستور السابق واحل محلّه القانون العسكري.

ـ وبعد مقتل ضياء الحق جاءت (بي نظير علي بوتو) ـ كرئيسة للوزراء ـ الىٰ الحكم بانتخابات جديدة وهكذا أُعيد الدستور الاسبق.

ـ وبعد فشل سياسة (بي نظير) تشكّلت حكومة جديدة مؤقتة لمدة ثلاثة اشهر بقيادة غلام مصطفى جوّئي ثم انتخب (ميا نواز شريف) رئيساً ـ للوزراء ـ للحكومة الحالية في (٢٤) اكتوبر (١٩٩٠).

هذا إن دلّ علىٰ شيء فانما يدلّ علىٰ ان القوانين الوضعية والتي صيغت بإطار اسلامي إنّ معظمه مقتبس من القوانين الاجنبية الوضعية كالقانون الاميركي، وبما ان تلك القوانين لا تعالج مشاكل اي بلد اسلامي او اي مجتمع من المجتمعات الاسلامية فهي لا تصلح بالمرّة لئن تطبق في هذه البلدان والتي انعم الله عليها بالدستور السماوي وهو القرآن الكريم، فمن الطبيعي ان تدخل التعديلات او الحذف او التغيير او الزيادة والنقيصة علىٰ بنود تلك القوانين وموادّها الاساسية والثانوية.

السلطات العليا في الدولة

هناك ثلاث سلطات رئيسية في كل دولة.

اولاً: السلطة التشريعية.

ثانياً: السلطة التنفيذية.

ثالثاً: السلطة القضائية.

قد يفتخر العالم الحديث بانه عرف هذه السلطات الثلاث ونظّم الحقوق والواجبات وفق هذه السلطات. لكن الاسلام مارس هذه السلطات الثلاث منذ اربعة

عشر قرناً من الزمان. وان القرآن الكريم يهدينا اليها، كما ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حدّد هذه السلطات الثلاث تحت عناوين اخرى مشابهة لها وبيّن الخطوط العريضة لها. وهنا نستعرض فقط السلطة التشريعية من بين هذه السلطات بشيء من الايجاز، ونترك الحديث عن السلطتين التنفيذية والقضائية الى مناسبة اخرى إن شاء الله.

اولاً ـ السلطة التشريعية:

ان الفقه الاسلامي لم يعد مقتصراً على الاحكام الفقهية او الاحكام الفرعية في العبادات والمعاملات... بل انه منهج متكامل لكل جوانب الحياة الانسانية، فالشريعة ـ مثلاً ـ تتناول جانب العقيدة، والعبادة، والمعاملات، والاحوال الشخصية من اجتماع واقتصاد وسياسة، كما ان الشريعة تنظم حياة المجتمع وعلاقات السلطة بالرعية، وموقف الحكومة من بقية الدول والحكومات، وعلاقة المسلمين بغيرهم من سائر المذاهب والاديان والملل، وكل ما ينتج عن الفقة الاسلامي انما هو لغرض تنظيم الحياة الانسانية، ولاجل رقي وازدهار الحضارة، وليعم الخير في ارجاء المعمورة وتكون الفضيلة هي السائدة في كل وقت ومكان...

الجماعات البشرية ايّ كانت، تحتاج الى اسس وقواعد ثابتة، ودعائم تقيم عليها روابطها الانسانية وتمارس حقوقها المشروعة، وتحدد علاقاتها، وتحافظ على كيان افرادها وحقوقهم، وتلك القواعد والاسس هي التي تحفظ الافراد من الانفلات، او التمرد الخلقي، أو التعدي على حقوق الآخرين، ولما كانت الغرائز الكامنة في الانسان لها دور كبير، كما ان الانسان ميّال لحب الذات اذن فمن الضروري تهذيب تلك الغرائز واللذّات وحصرهما في اطار الفضيلة والخير.

ثم ان الانسان اجتماعي ومدني بالطبع، كما وجدناه منذ اقدم العصور، ويؤاثر الحياة الاجتماعية كي يحقق اكبر قدر ممكن من المنافع الشخصية، لهذا يضطر الى تكوين علاقات بينه وبين ابناء جنسه لذاك الغرض، وكيفما كان فان الافراد يسعون لتحقيق المصالح المشتركة بأي شكل من الاشكال، غير ان تلك المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة لا بدّ من تنظيمها، ولا بدّ للانسان من ضوابط

تلزمه كي لا يتعدّى بتصرفه الى حقوق الغير، من خلال القوة التي يتمتع بها او ما تمليه الظروف الخاصة عليه ليصبح عامل خطر يهدد مصالح الآخرين ويعرضهم للدمار من خلال الاستغلال والاجرام... فالتشريع امر ضروري لحفظ المصالح المشتركة وتأمين حقوق الغير وفق مبدأ العدل والمساواة.

والمجتمعات على قسمين، قسم يخضع للأسس والضوابط الالهية وهي التي تدين بأحد الشرائع كالموسوية والعيسوية والاسلامية. وقسم لا يخضع لواحد من تلك الاديان وانما كوّنت لها نظاماً او دستوراً خاصاً ينظم حياتها ولون العلاقات او الارتباطات بين الافراد انفسهم او بين الافراد والفئة الحاكمة. وهذا القسم الثاني انحدر من واقع المجتمعات البدائية المؤلّفة من مجموعة أسر او قبائل، حددت فيها واجبات الفرد وحقوقه وتصرفاته الخاصة او العامة ضمن الاسرة او القبيلة، ثم بعد ذلك تطورت هذه الضوابط فأصبحت شبيهة بالقانون الذي تسنّه سلطة ما عندما تكون لها حق السيطرة على المجتمع.

الفصل الخامس

في الاقتصاد الاسلامي

قبل الخوض في الحديث عن الاقتصاد الاسلامي، يجدر الأشارة الىٰ تعيين مفهوم علم الاقتصاد والمذهب الاقتصادي والفرق بينهما ولو بصورة موجزة.

المذهب الاقتصادي:

يراد من المذهب الطريقة المتّبعة، وبإضافة (الاقتصادي) اليها تعني الطريقة لتنظيم الحياة الاقتصادية وفقاً للعدالة الاجتماعية.

علم الاقتصاد:

عبارة عن فن من الفنون تدرس فيه طريقة ما مبّينا النتائج والآثار وموضّحاً التوصيات والاقتراحات التي وضعتها تلك الطريقة لجملة من المسائل:

وبين المذهب الاقتصادي وعلم الاقتصاد فوارق عديدة اهمّها:

اوّلاً: إنّهما يختلفان في المهمة، حيث مهمة المذهب الاقتصادي ايجاد طريقة مثلىٰ في تصورّه لتنظيم الحياة الاقتصادية كما ينبغي وفقاً للعدالة.

امّا علم الاقتصاد فمهمّته اكتشاف الحياة الاقتصادية كما هي فعلاً.

ثانياً: المذهب عندما يستلهم طريقة ما انّما هي وفق العدالة التي تصورها من ذاته وآمن بها. اما العلم فهو يتبع اساليب علمية قائمة علىٰ اساس الحس والتجربة ليصور لنا العلائق بين مسائل هذا الموضوع واسبابه ونتائجه.

ثالثاً: المذهب يهتم كثيراً في صياغة الحلول الناجحة واتباع السبل والوسائل التي من شأنها تطوّر الحياة الاقتصادية وتدفع بها الى الأحسن لرقي المجتمع، فلو حصل خطأ ما في بعض الجوانب العملية لتطبيق جزئيات الطريقة فان المذهب يهتم بذلك ويحاول وضع السُبل الكفيلة لتلافي الخطأ او الابتعاد من الازمات الاقتصادية التي ستحل به.

اما العلم فلا يعنيه جانب الخطأ أو الصواب بقدر ما يعنيه البحث في اسباب الخطأ وآثاره السلبيه.

ما هي المذاهب الاقتصادية:

المذاهب الاقتصادية الرئيسية في العالم اليوم هي ثلاثة:

١ ـ المذهب الاسلامي.
٢ ـ المذهب الرأسمالي.
٣ ـ المذهب الاشتراكي.

سوف نتكلّم عن المذهب الاقتصادي الاسلامي من خلال بيان القواعد والاسس التي يتبنّاها الدين الاسلامي والتي تشكّل المنابع الاولى للمذهب الاسلامي في بناء حياة اقتصادية تسود فيها العدالة الاجتماعية لكل ابنائه ولكي نفهم هذه المنابع والاسس، آثرت ان أعرّف بالمذهبين الرأسمالي والاشتراكي كمدخل للحديث عن المذهب الاقتصادي الاسلامي.

وبعد ذلك التعريف الموجز ـ عنها ـ نعقد حديثاً مفصّلاً عن مساويء هذين المذهبين في آخر البحث والمقارنة بينهما وبين الاقتصاد الاسلامي الذي سبق في وجوده غيره منذ اربعة عشر قرناً من الزمان.

المذهب الرأسمالي:

اهم شيء في النظام الرأسمالي: انه يتبنّىٰ الديمقراطية في اعلان الحريات التي تشكّل القانون الاساس له، والحريات المتبنات هي:

١ ـ الحرية السياسية.

٢ ـ الحرية الاقتصادية.
٣ ـ الحرية الفكرية.
٤ ـ الحرية الشخصية.

ثم يتبنّىٰ هذا النظام مبدأ الملكية الشخصية، اذ يجعل الملكية الفردية (الشخصية) هي المبدأ في الحياة ويحق لكل فرد ان يمتلك ما يشاء من الموارد الطبيعية ومرافق الانتاج ووسائله.

كما ان الرأسمالية تتيح للافراد تملّك مصادر الانتاج ووسائله وأخذ الفوائد عليها. وبما ان المال هو احد مصادر الانتاج، فيحق لصاحب رأس المال أن يأخذ الفوائد المالية عند منح القروض للآخرين.

وهذا في مفهوم الدين الاسلامي هو (الربا) الذي حرّمه وشدّد عليه. والمذهب الرأسمالي برز الىٰ الوجود بعد ظهور الثورة الصناعية في اوربا في غضون النصف الثاني من القرن الثامن عشر وعلىٰ اثر تطوير وسائل الانتاج كالآلة والتكنيك الجديد في استثمار الارض ورأس المال وبقية الموارد الاخرى.

عرض سريع للحرية الاقتصادية:

السبب في اعتبار هذه الحرية في المجتمعات الرأسمالية انما يعود الىٰ جملة من الادعاءات اهمّها:

ادعاؤهم ان الحرية الاقتصادية افضل وسيلة لتطوير ونمو الانتاج، وهذا انّما تعود ثماره للمجتمع من خلال اطلاق الحرية الشخصية، والتي هي بدورها تخلق الحرية الاقتصادية، غير ان هذا الادعاء لم يحقق للمجتمعات الرأسمالية اي توافق بين مصالح الفرد ومصلحة المجتمع، بل هذا الادعاء اثبت ما هو العكس من ذلك، إذ استعملت الحرية كسلاح فتّاك بيد الاقوياء للتحكم في طبقات المجتمع واستغلال مواردهم وطاقاتهم وكفاءاتهم خدمة لمصلحة افراد معدودين يحتلون ذروة المجتمع البرجوازي. لهذا ظهر الاستغلال في البلدان الرأسمالية في ابشع صوره والذي نجمت من ورائه الكارثات الضخمة وجرّت على تلك الشعوب الويلات والمحن.

كما ان النمو في الانتاج وزيادته لا يحقق الرفاه للمجتمع دائماً، وما الفائدة من تلك الزيادة في الانتاج وبجانبه ملايين من الناس يخضعون تحت مطرقة البؤس والبطالة، وتنتشر بين اوساطهم المجاعة والانتحار بسبب العوز المادي؟!

فلو انعدمت القُدرة الشرائية عند الناس لسلعة (ما) سوف يؤدّي الى تناسب عكسي بين تصريف البضاعة واستهلاكها، وبين العرض الموجود منها في الاسواق، وهذا سوف يؤدّي بدوره الى تسريح اعداد كبيرة من العمال من جراء تخفيض الانتاج من قبل ارباب المعامل.

واذا انخفضت الانتاجية سيؤدي الى شحُة السلعة في الاسواق، مما يرتفع سعرها، ومن ثم يتعّذر على اصحاب الدخل المحدود ان يبذلوا بازائها الثمن المخصص، وبالتالي سوف يُحرمون منها، وتكون السلعة من حظ غيرهم من ذوي الدخول العالية.

اذن وفرة الانتاج ونَموه في المجتمع الرأسمالي الذي تُمارس فيه الحرية الاقتصادية والحرية الشخصية يخلق المساوىء التالية:

١ ـ الزيادة في العرض على الطلب.
٢ ـ انخفاض في ثمن السلعة.
٣ ـ تسريح العمال وأنتشار البطالة.
٤ ـ قلّه الانتاج، ثم الارتفاع في الاسعار من جديد.
٥ ـ حرمان الطبقة ذات الدخل المحدود من التمتع بمثل هذه السلع.
٦ ـ من جراء انتشار البطالة تكثر عمليات السرقة والانتحار والاجرام والتسيّب الخلقي.

وطالما كانت الحرية الشخصية هي التي تتحكم في المجتمع الرأسمالي، فإن الانانية والاحتكار وحبّ الذات، هي من ابرز سمات تلك الشعوب وبالذات الطبقة البرجوازية منه.

لهذا انك لا تجد اي ضمان للطبقة الكادحة والفقيرة، بل كتب عليها انّ تحيا وتموت لأجل رفاه ثلّة من اللصوص والمستغلين لثروات المجتمع، وهي الطبقة

البرجوازية التي تتقلب على فراش النعيم والترف، لكن على حساب جهود الملايين من البشر وعلى دماء الابرياء والشعوب الفقيرة في العالم.

وقد استخدمت الرأسمالية الدولة والحكومة درعاً واقياً لحماية مصالح المموّلين والتجار وارباب المصانع، وتركت عامة الناس في متاهات البؤس والشقاء حيث كتب عليهم الموت لاجل ان يحيا تجار الرذيلة..

وقد توغّلت الرأسمالية في استغلال طاقة العمال واستثمار جهودهم بشتّى الوسائل وبأبشع الطرق حتى وصل بهم ان سخّروا النساء والاطفال وارهقوهم بالاعمال الشاقة، ممّا ادّىٰ الى أنتشار الامراض الفتاكة كالسل والسرطان والامراض الجنسية؛ كالزهري والسيلان وغيرهما واليك مثال واحد لاحصائية عن مرض السّل الذي تفشّى بين العاملين من النساء تتراوح اعمارهّن بين (١٧ ـ ٢٤)، إذ قدّم الدكتور (ترمان) طبيب المستوصف العام لمدينة (توتنجهام) هذه الإحصائية:

في سنة (١٨٥٢) في كل ١٠٠/٠٠٠ (٤٥) مصاباً.
في سنة (١٨٥٣) في كل ١٠٠/٠٠٠ (٢٨) مصاباً.
في سنة (١٨٥٤) في كل ١٠٠/٠٠٠ (١٧) مصاباً.
في سنة (١٨٥٥) في كل ١٠٠٠/٠٠٠ (١٨) مصاباً.
في سنة (١٨٥٦) في كل ١٠٠/٠٠٠ (١٥) مصاباً.
في سنة (١٨٥٧) في كل ١٠٠/٠٠٠ (١٣) مصاباً.
في سنة (١٨٥٨) في كل ١٠٠/٠٠٠ (١٥) مصاباً.
في سنة (١٨٥٩) في كل ١٠٠/٠٠٠ (٩) مصاباً.
في سنة (١٨٦٠) في كل ١٠٠٠/٠٠٠ (٨) مصاباً.

هذه حالة مرضية واحدة من بين مئات الحالات المختلفة من الامراض السارية، ناهيك عن الامراض العصبية والنفسية وعمليات الانتحار والموت المفاجيء، فمثلاً:

أ ـ ان عدد الذين ينتحرون من الامريكيين يفوق عدد الذين يموتون بالامراض.

ب ـ ان من بين ثمانية اشخاص، شخصاً واحداً يموت بالسرطان.

جـ ـ اثبتت الاحصائيات في معهد الخدمات الاجتماعية أن (٢٦٪) من الناس مصابون بخلل عقلي وأن (١٣٪) منهم مصابون بأمراض نفسية.

د ـ تدل الاحصائيات الامريكية في الخمسينات ان كل (٣٠) دقيقة يقع حادث انتحار في الاوساط الامريكية.

هـذا شيء يسير عن بعض المساويء التي برزت من جراء سلوك النظام الرأسمالي في الدول الاوربية والامريكية، وسيأتي التفصيل فيما بعد عن مساوىء النظام الاقتصادي الرأسمالي إن شاء الله.

المذهب الاشتراكي:

يعزى سبب ظهور المذهب الاشتراكي الى فكرة سبقته من قبل كارل ماركس والذي برز على صعيد التمرد على الاديان السماوية قاطبة، فأقام شعار:

«الدين أفيون الشعوب».

وكان ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ولمّا وقف كارل ماركس الالماني الاصل، اليهودي المنحدر موقفاً مهاجماً للأديان والقيم والمُثل والأخلاق، هاجم بعنف القياصرة ثم الكنيسة...

وقد وجد من فكرته انصاراً ومؤيدين بسبب تردّي الحياة الاقتصادية وتحكّم رجال الكنيسة في مقّدرات الناس وتسلّطهم على الرقاب.

هكذا اتاحت الفرصة لماركس ان يثور على الدين والقيم ويعلن فكرة الإباحة في كل شيء والتي إتخذت فيما بعد طابعاً حزبياً تمثّل بالحزب الشيوعي الماركسي.

وقفة مع الماركسية:

الماركسية ربطت اشكال التوزيع باشكال الانتاج، فكل علاقة انتاج ينشأ منها بالضرورة علاقة توزيع معينة.

وقد اسس ماركس حزبه الشيوعي على هذه الفكرة، وذهب القادة الشيوعيون إلى

التأكيد على بنية المجتمع وان فطرة الانسان انما هي كانت فطرة جماعية لا فردية، وان البيئة هي التي تطبع الفرد بطوابعها المختلفة، لكن من الممكن تجريدها من تلك الطوابع ليسود المجتمع الطابع الشيوعي كما كان سابقاً في العصور القديمة حيث الشيوعية الاولىٰ، فلا قيود ولا استغلال ولا مصالح فردية بل انها الطبيعة النقيّة الخالية من الصراع او التزاحم في المصالح الفردية...

هكذا كانت فكرة الحزب الشيوعي، لذا اقرّ ان الفرد يعمل لاجل المجتمع متناسياً نفسه، ويتناول من الحاجيات ما هو الضروري له.

وعلى ذلك الاساس رفعوا شعار (من كلٍ حسب مقدرته، ولكلٍ حسب حاجته).

الفلسفة الشيوعية في الاقتصاد:

تتلخص هذه الفلسفة في الصيغتين:

أ ـ الفطرة الانسانية هي فطرة جماعية لا فردية.

ب ـ المراحل التي مرّت بها الجماعة البشرية عبر القرون منذ بدء البشرية والى اليوم هي:

١ ـ مرحلة الشيوعية الاولى.

٢ ـ مرحلة الرق او العبودية.

٣ ـ مرحلة الاقطاع.

٤ ـ مرحلة الرأسمالية.

٥ ـ مرحلة الشيوعية الثانية والتي نادى بها كارل ماركس وفودريك انجلز منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي.

وللوصول الى هذه المرحلة الشيوعية الثانية قرّروا اتّباع الخطوات التالية كمرحلة من مراحل تطبيق الشيوعية وهي:

١ ـ استيلاء طبقة العمال على الحكم.

٢ ـ الغاء جميع رؤوس الاموال والفوائد الناتجة منه.

٣ ـ القضاء على الشخصية الفردية او الكيان الشخصي ويتم ذلك في نكران

الذات للافراد.

٤ ـ مصادرة الثروات الطبيعية وجعلها ملكاً للدولة المتمثلة بالحزب الشيوعي.

٥ ـ تأميم وسائل الانتاج للشعب بواسطة الحكومة.

٦ ـ القضاء على الاديان وعدم الاعتراف بها، والغاء كل الاعراف الدينية أو الاجتماعية السائدة التي تعرقل تطبيق الشيوعية في البلاد.

٧ ـ الغاء الفوارق الطبقية او التميز الجنسي والعرقي.

٨ ـ ربط الفرد بعجلة الانتاج، واجبارهُ على العمل وفق طاقته وقدرته.

٩ ـ تقسيم البضائع الضرورية على الافراد وفق الحاجة الملحّة.

١٠ ـ الغاء الدولة بعد تنفيذ النقاط المتقدمة، إذْ لا حاجة بعد ذلك الى الدولة بسبب عود الانسان الى حالته الطبيعية اي الشيوعية...

هذه هي فلسفة الشيوعية الى الحياة... الدولة... الاقتصاد...

الا أن هذه الفلسفة لم تقو على البقاء والصمود مما استخدم الحزب الشيوعي القوّة والدكتاتورية لفرض مبادئه على شعوب الاتحاد السوفياتي، قال كارل ماركس وزميله انجلز:

إن المرحلة الاولى في ثورة العمال هي كما رأينا تشييد البروليتارية في طبقة سائدة، والاستيلاء على الديمقراطية، وتستخدم البروليتاريا(١) سيادتها السياسية، لأجل انتزاع رأس المال من البرجوازية... ولايتم ذلك الا بخرق حق التملك ونظام الانتاج البرجوازي بالشدة والعنف...(٢).

واكد كارل ماركس مرات عديدة على مبدأ الدكتاتورية في الحكم فقال:

«ان مجرد قيام انقلاب شيوعي لا يكفي لتحقيق مبادىء الشيوعية.. فالطبقة الرأسمالية التي تسحقها طبقة العمال ستحاول دائماً التآمر ضد الثورة الشيوعية، كما ان الطبقة العاملة ينقصها دائماً العلم والتنظيم، لانها جاهلة، وغير منظمة بحكم نشأتها، ومن هنا سيصبح حتماً على العمال ان يواجهوا مشكلتين خطرتين، هما:

---

(١) البروليتاريا تعني طبقة العمال الذي وعدت من قبل الحزب الشيوعي باستلام الحكم.

(٢) كارل ماركس وفردريك انجلز ـ البيان الشيوعي/ص ٥٣.

اولاً: عدم قدره الطبقة العاملة على حكم نفسها بنفسها عندما تؤول اليها السلطة.

وثانياً: خطر قيام الطبقة الرأسمالية بمحاولات ناجحة لاسترداد سلطتها المسلوبة.. لذلك ينبغي أن تقوم على أثر الانقلاب الشيوعي دكتاتورية عمالية، عمادها هيئة مختارة من قادة العمال المثقفين...»[1]. وهكذا قادة الحزب الشيوعي يؤكدون على مبدأ القتل والعنف والقوة والدكتاتورية، والقضاء على المخالفين للحزب الشيوعي.

اقوال القادة الشيوعيين في تطبيق فلسفتهم الاقتصادية:

١ ـ كارل ماركس.

صرّح في عام (١٨٦٠ م):

«القوّة هي التي تحدد مصير كل شيء، فالقوه هي القانون الطبيعي، الذي يكشف عن نفسه في كل ميدان، ولهذا فاننا نؤمن بأن الحق كامن في القوة، ونؤمن بأن القوة هي سبيلنا الى النصر»[2].

٢ ـ لينين، صرح في عام (١٩٠٥):

«فلتكن سياستنا قائمة على اساس القوّة فبالقوة نرهب خصومنا، وبالقوّة يحترمنا أنصارنا، وبالقوة نحطّم النظام القديم، وبالقوّة نقيم نظاماً جديداً، إن القوّة هي مفتاح النصر»[3].

وصرّح في عام (١٩٢٠):

«يجب ان تكون القوانين التي نطبقها في بلادنا صارمة، ويجب ان تتميز بحمل المواطنين على اطاعتها، ويجب ان يبلغ احترام هذه القوانين أقصى

---

(١) ماهر نسيم ـ النظام الشيوعي/ص ٦٧.

(٢) المصدر السابق/ص ٢٤.

(٣) المصدر السابق/ص٢٢.

الحدود، فنحن لا نتساهل مع اي فرد يتجاوز سلطة الدولة..»[1] وصرح في عام (١٩٢٢) قائلاً:

«ليس الشيوعي الصادق هو ذلك الشخص الذي يؤمن بتجريد خصمه من قوته فحسب، بل الشيوعي الصادق هو ذلك الشخص الذي يقتل خصمه، بعد ان يجرده من قوّته، فالموت هو الشيء الوحيد الذي يريحنا من خصومنا»[2].

٣ ـ ستالين، صرح في عام (١٩٣٣):

«... اننا نؤمن بالاستبداد، ونؤمن بالطغيان، ونؤمن بالعنف، لأن نظامنا الثوري على اساس القضاء على الطبقات، يتطلب الالتجاء الى كل هذه الوسائل»[3].

وصرّح في عام (١٩٥١) قائلاً:

«.. ان الشيوعي الذي يتسامح مع الخارجين على القانون الشيوعي، لا يقلّ عداوة لنا من اعداء الشيوعية، ولهذا فاننا لا نرحم الرفاق الشيوعيين، الذين لا يطبقون القانون الشيوعي بقسوة وصرامة...»[2].

هذا شأن قادة الحزب الشيوعي في تطبيق المبادىء الماركسية والشيوعية على شعوبهم ولو بازهاق ارواح مليونين من الطبقة العاملة ونفي (٤) ملايين من البلاد والحكم على مليونين باحكام مختلفة كالسجن والتعذيب والغرامات المالية[5] وغير ذلك.

مع هذا لم تفلح الماركسية ولا الشيوعية من تطبيق مبادئها مع فرض العنف والنار والحديد والقتل والتشريد، مما دفع قادة الحزب الشيوعي وعلى رأسهم ـ لينين ـ لينسخوا نظريات ماركس بعد فشلها الذريع واستحالة تطبيقها، فابتدع لينين نظرية جديدة هي الاشتراكية، لكن لم يصرح بفشل نظريات ماركس بقدر ما هو في

---

(١) ماهر نسيم ـ النظام الشيوعي/ص ٢٨.
(٢) المصدر السابق/ص ٢٤.
(٣) نفس المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق/ ص ٣.
(٥) ابو الاعلى المودودي ـ اسس الاقتصاد/ ص ٧٩.

صدد تهيئة الاجواء الشعبية واذهان الشيوعيين الى هذه الفكرة الجديدة، وقبولها ملمّحاً الىٰ انها مرحلة ضرورية لتطبيق الشيوعية، فقال:

«... المجتمع الشيوعي انما هو شيوعي في كل شيء، الارض مشتركة، والمعاملة مشتركة، والعمل مشترك، تلك هي الشيوعية، فهل يمكن ان يكون ثمة عمل مشترك اذا كان كل امريء يستثمر قطعة الارض لحسابه الخاص؟ إن العمل المشترك لا ينشأ دفعة واحدة! هذا غير ممكن! ولا يهبط من السماء! انما ينبغي اكتسابه، إنه ثمرة آلام طويلة، ينبغي إنشائه وهو ينشأ في غمرة النضال...»[1].

ثم جاء خروشوف في الخمسينات ليصّرح بنفس الفكرة التي تقدّم بها زميله الشيوعي لينين فقال:

«... الاحزاب الماركسية اللينينية تعتبر ان الهدف النهائي هو بناء المجتمع الشيوعي، ولكن المجتمع لا يمكن له أن يقفز من الرأسمالية الىٰ الشيوعية دون أن يجتاز المرحلة الاشتراكية من تطوره..»[2].

هكذا برز المذهب الاشتراكي ليحل محل الماركسية من جانب وليكن مرحلة ابتدائية أو مقدمة لتطبيق الشيوعية من جانب آخر.

وبهذا نستنتج فشل النظرية الماركسية القائمة على الفكرة الشيوعية أو الإباحة بكل شيء وشيوعها بين المجتمع.

ثم ان المذهب الاشتراكي هو الأخر بان فشله وتلكؤه في كل مراحله عندما اعلن هو الآخر دكتاتورية الحزب ومصادرة جميع الحريات... والمذهب الاشتراكي يساير الماركسية في الغاء الملكية الخاصة بالمرّة كما انه يدعو الىٰ تنظيم الانتاج والتوزيع الا انه يتبنىٰ فكرة الحقول الجماعية والجمعيات والمنشآت الجماعية.

وكيفما كان فان هذا الربط بين علاقة الانتاج والتوزيع بنيت أسسه علىٰ اراقة

---

(١) لينين ـ مهمات منظمات الشباب ـ ط. موسكو/ ص ٢٣.

(٢) خروشوف ـ الارقام التوجيهية ـ ط. موسكو/ص ١٤٠.

دماء الملايين من الشعب السوفياتي، كما نتج منه مساوىء عديدة واخطاء جسيمة، حيث ظهرت علاقات انتاج وقوى منتجة جديدة تحتاج الى تنميتها، ومن ثم اعادة توزيعها من جديد، وعلى هذا الاساس، سوف تتغير كل معالم الاقتصاد للبلد، ويختل فيها الانتاج وتضطرب الموازين الاقتصادية الى متطلبات الحياة الضرورية...

فمن الصعب جداً ان يحصل التوافق او التوازن بين حجم الانتاج الكلي الذي لم يزل في تناقص عن الحد الادنىٰ وبين اشباع حاجيات المجتمع الاساسية والتي هي في تزايد ملحوظ.

اذن النسبة عكسية في ظل النظام الاشتراكي وقد اكّد المسؤولون السوفيات علىٰ هذا العجز الكبير الذي تواجهه الحكومة وعلىٰ رأس هذا العجز هي المواد الغذائية وبالخصوص القمح والذي يعتبر المادة الرئيسية والاساسية لاي شعب كان..

نظام كهذا الذي بُنيت أُسسه علىٰ مصلحة الانتاج دون النظر الىٰ مصلحة الفرد انه لنظام فاشل، وكلما تقدّم به الزمن وجد نفسه اكثر قصوراً في تحقيق مبادئه التي لا تتعقلها حتىٰ النظريات المثالية...

والتساؤل علام هذه الحتمية في جعل مصلحة الانتاج هي الاساس؟ ألم يكن الانسان هو الهدف من كل عمليات الانتاج؟!

أو لم يكن الرفاه الاجتماعي والازدهار الاقتصادي لاجل الانسان كإنسان حر يتمتع بكل مواصفات الحياة والبقاء والانسانية؟!

هذا عرض سريع لبعض جوانب المذهب الرأسمالي والاشتراكي ولنا كرّة اخرى لبيان الآثار السلبية لهما ولننتقل الىٰ:

المذهب الاقتصادي الاسلامي

لا نعني بالمذهب الاقتصادي الاسلامي انه موجود بصورة نظريات في النصوص القرآنية أو السنة، بل ان النصوص التي يتحفنا بها القرآن الكريم والسنة

المباركة، انها بمثابة قواعد كلّية وبمجموعها تشكل الأسس الاولية والخطوط العامة للاقتصاد الاسلامي.

وان مصادر التشريع الاسلامي تحدد علاقة الفرد الواحد بالآخر، في مجال الانتاج والتوزيع والاستهلاك، ثم علاقة الفرد بالدولة، ودور الحكومة في تنظيم الحياة الاقتصادية من وجهة الانتاج والتوزيع، فعليها أن تضمن حقوق الآخرين، مثل حق الانتفاع بموارد الطبيعة التي هي (حق العام) او الانتفاع بالموارد التي تكون حقاً للدولة ثم تمنحه للشعب بتخويل أو اجازة. . .

ثم تضع الدولة الضوابط اللازمة لمنع الاحتكار من قبل الافراد او الشركات للسلع المنتجة، كما انها تضع الرقابة المشددة للحدّ من التلاعب بالاسعار ارتفاعاً او انخفاضاً.

والغرض من تدخل الدولة ـ على المسلك الاسلامي ـ في شؤون الانتاج أو التوزيع، هو لتأمين حاجيات الناس، وتحقيق اكبر قدر ممكن من الرفاهية لهم، وسيادة العدالة في المجتمع، والقضاء على صور الاستغلال والاحتكار والظلم الذي قد يظهر في قطاع المنتجين او الوسطاء للتوزيع.

فمن مجموع تلك النصوص والقواعد المبثوثة في مصادر التشريع، والاصول العملية المتفرّعة تتهذّب لنا الكثير من المسائل الاقتصادية، بحيث لو جمعت تلك المسائل من ابوابها المختلفة لكوّنت لنا اصولاً وقواعد اقتصادية لتصبح هي المنبع الاساس للمذهب الاقتصادي الاسلامي.

ولما كان هدف الشريعة الاسلامية تهذيب سلوك الافراد وتنظيم حياتهم من جميع الوجوه، فقد وجدناها ـ واستناداً الى العدالة المرسومة للبشر من قبل المولى سبحانه ـ تناولت كل مناحي الحياة الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية كي يتمتع الجميع بالحياة الفاضلة الطيّبة.

وكما ان التشريع يهدف الىٰ تهذيب العلاقات بين الافراد وبالتالي الى استخلاص نظام كامل للمجتمع، فهو كذلك يهدف الىٰ تنظيم وتهذيب علاقات المجتمع الاسلامي بالمجتمعات الأخرى.

هذه الشمولية لكل صور الحياة لا نجدها في اي نظام من الانظمة السائدة في العالم اليوم عدا التشريع الاسلامي الذي رسم لنا اروع الطرق والسبل لتحقيق العدالة التي كانت تصرخ من اجلها الانظمة الوضعية لكن ولا كرامة لها..

المالك المطلق:

المالك الحقيقي لكل مظاهر الوجود والموجود هو الله سبحانه وتعالىٰ وقد اشار القرآن الكريم الىٰ هذه الحقيقة في مواضع شتّىٰ:

﴿ولله ملك السماوات والارض وما بينهما...﴾[1].

﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾[2].

﴿الملك يومئذٍ الحق للرحمن...﴾[3].

فلا منازع لملكه ولا شريك له، وكل شيء صائر اليه.

منابع القدرة هبة الله لعباده:

اودع سبحانه وتعالى منابع القدرة في هذا الكون الفسيح المتّل بارضه وسمائه ومائه وهوائه وجباله، اودع فيه الشمس والقمر والبر والبحر ثم فتق من كل تلك المظاهر منابع ظاهرة واخرى باطنة، منابع جاهزة للاستهلاك واخرى بحاجة الىٰ جهد وعمل..

لقد خلق الله سبحانه كل تلك المنابع، فاودعها في هذا الكون وقال للانسان اليك خذها وانتفع بها، قال تعالىٰ:

﴿وسخّر لكم الفلك... وسخّر لكم الانهار... وسخّر لكم الشمس والقمر... وسخّر لكم الليل والنهار... وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً... ألم تر أن الله سخّر لكم ما في الارض...﴾.

آيات من الذكر الحكيم، سورة ابراهيم (٣٢)، النحل (١٢ و١٤)، الحج (٦٥)، انه نِعَم حباها الله عباده وما اكثرها:

---

(١) سورة المائدة الاية ١٧.

(٢) سورة الاسراء الآية ١١١.

(٣) سورة الفرقان الآية ٢٦.

﴿وان تعدّوا نعمةَ الله لا تحصوها. . . ﴾[1].

اجل كيف تستثمر هذه القدرات والمنابع؟

لقد فضّل سبحانه البشر علىٰ كافة المخلوقات حيث وهبهم نعمة العقل والتفكير ثم جعلهم خلائف في الارض، ثم سخّر كل ما في الوجود لعباده كي ينتفعوا بما وهبه الله سبحانه لهم من خيرات ونعم اسبغها عليهم ليعمروا البلاد ويهنأ العباد، انه سبحانه اراد حياة عزيزة لهم وكرامة تشملهم وعزة تسودهم، ثم اكّد سبحانه علىٰ كيفية تلاحم الافراد والشعوب فقال عز من قائل:

﴿يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. . ﴾[2].

ثم لما كانت الفطرة التي فطر الله سبحانه الناس عليها تقتضي ان يكون التفاوت والتباين بين افراد الناس في كثير من الامور كالمواهب والقدرات والامزجة والكفاءات، فكذلك هم مختلفون في الرزق والمعاش. . .

﴿والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق. . . ﴾[3].

﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له. . ﴾[4].

لهذا جاءت الشريعة الغرّاء بالمُثل والاخلاق والتوصيات، لتجعل المجتمع في اطار نظيف تسوده الفضيلة بدل الرذيلة، انطلاقاً من التواصي بين الافراد والتراحم فيما بينهم، وحثّهم علىٰ التعاون، لا على الاثم والعدوان.

فمن جانب رغبّت الشريعة على التنافس والمسابقة في طلب الرزق والمعاش، وهذا الارتزاق مفتوح لكل فرد، هذا التسابق سوف يتكفّل لتوفير فرص الحياة والمعاش لكافة الناس وبهذا سوف لا تبقىٰ طبقة ما عالة على غيرها وهي تجد في نفسها قابلية الاكتساب وتحصيل المعاش الضروري لها.

(١) سورة ابراهيم الآية ٣٤.
(٢) سورة الحجرات الآية ١٣.
(٣) سورة النحل الآية ٧١.
(٤) سورة العنكبوت الآية ٦٢.

ومن جانب آخر دعت الشريعة الاسلامية الىٰ ان يتّسم اولئك المتسابقين بالعطف والحنان والرحمة وإيثار الغير على النفس، وهذا هو التكافل الاجتماعي الذي تطلبه منا الشريعة، إذ يكون الغني سنداً لاخيه الفقير فيسدّ نقصه المالي ويشبع جوعه، ويشد ازره، ويواسيه في حضره وسفره.

من المبادىء الاسلامية في الاقتصاد

التباين الفطري الموجود بين الناس في قدراتهم وطاقاتهم لا يمكن تسويته بأي نظام وضعي اقتصادي او فلسفي او سياسي، علماً ان جميع الانظمة الاقتصادية الوضعية تتنكر لهذا التباين وهي بالتالي لا تعلم حكمة هذا التباين الفطري وتوابعه ولا يعلم ذلك الا خالقه العزيز القدير الحكيم.

ولمّا كان هذا التباين شيئاً فطرياً، فقد شرّع المولى تشريعاً دقيقاً وفق ذلك التباين، كما جاءت السّنة الشريفة لتفصّل بعض ما اجمله القرآن الكريم، فمثلاً تجد في الشريعة الاسلامية مبادىء واسس اقتصادية لتنظيم الحياة منها:

١ ـ رغّبت الشريعة الجميع في العمل والجد في طلب الرزق ونبذت الكسل.
٢ ـ ذمّت الاتكال علىٰ الآخرين ومقتتهُ حتىٰ ولو كان ذلك لاجل العبادة.

«عن ابن بكير عن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام رجل قال: لأقعدّن في بيتي ولأصلّين ولأصومنّ ولأعبدنّ ربي، فأما رزقي فسيأتيني، فقال ابو عبد الله عليه السلام: هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم»[1].

«وعن شهاب بن عبد ربه قال: قال لي ابو عبد الله عليه السلام ان ظننت او بلغك أن هذا الامر كائن في غد فلا تدعنّ طلب الرزق وان استطعت أن لا تكون كلاً فافعل»[2].

«وعن محمد بن مسلم عن ابي جعفر عليه السلام قال: إني لابغض الرجل أو

(١) وسائل ١٢/ص ١٤.
(٢) وسائل ١٢/ص ١٤.

أبغض لرجل أن يكون كسلاناً عن امر دنياه، ومن كسل عن أمر دنياه فهو عن أمر آخرته اكسل»[1].

٣ ـ جعلت الشريعة للفقراء حقوقاً في اموال الاغنياء.

﴿.. وفي اموالهم حق للسائل والمحروم﴾[2].

﴿.. والذين في اموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم..﴾[3].

٤ ـ حرّمت ولاية السفهاء ومنعت تخويلهم او اعطائهم الاموال.

﴿ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التي جعل الله لكم قياماً..﴾[4].

٥ ـ حرّمت الرّبا والفوائد الربوية بكل صوره.

﴿ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل..﴾[5].

﴿يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الرّبا ان كنتم مؤمنين، فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس اموالكم لا تَظلمون ولا تُظلَمون﴾[6].

٦ ـ شرّعت الزكاة في الغلات والمواشي والذهب والفضه.

﴿خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها...﴾[7].

٧ ـ شرّعت الخمس في ارباح المكاسب والمعادن وغنائم الحرب والكنز والمال المختلط بالحرام.

﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾[8].

---

(١) وسائل ١٢/ص ٣٧.
(٢) سورة الذاريات الآية ١٩.
(٣) سورة المعارج الآية ٢٤.
(٤) سورة النساء الآية ٥.
(٥) سورة البقرة الآية ١٨٨.
(٦) سورة البقرة الآيتان ٢٧٨ و ٢٧٩.
(٧) سورة التوبة اية ١٠٣.
(٨) سورة الانفال الآية ٤١.

٨ ـ حرّمت الاسراف والتبذير في الاموال.

﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين﴾[1].

﴿والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾[2].

﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذّاب﴾[3].

﴿وأن مردنا الىٰ الله وأن المسرفين هم اصحاب النار﴾[4].

٩ ـ ذمّت البخل والتقتير.

﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌ لهم سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والارض.. والله بما تعملون خبير﴾[5].

﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾[6].

١٠ ـ حرّمت السرقة وشددت العقوبة عليها.

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاءً بما كسبا..﴾[7].

١١ ـ حرّمت الاكتساب بالامور غير المشروعة؛ كالخمر وآلات القمار، والميتة، والزنا، والرشوة... فهي كلها من السحت.

«عن عمّار بن مروان قال: قال ابو عبد الله عليه السلام: كل شيء غلّ من الامام فهو سحت، والسحت انواع كثيرة، منها ما أُصيب من اعمال الولاة الظلمة ومنها أُجور القضاة وأُجور الفواجر، وثمن الخمر والنبيذ المسكر، والربا بعد البيّنة

---

(١) سورة الاعراف الآية ٣١.

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٧.

(٣) سورة غافر الآية ٢٨.

(٤) سورة غافر الآية ٤٣.

(٥) سورة آل عمران الآية ١٨٠.

(٦) سورة النساء الآية ٣٧.

(٧) سورة المائدة الآية ٣٨.

فأما الرّشا يا عمّار في الاحكام فان ذلك الكفر بالله العظيم وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

١٢ ـ جعلت الارث وسيلة لعدم تركيز الاموال والثروات في يد واحدة بعد موت المورّث، وهذا ممّا يحقق العدالة الاجتماعية، والانتفاع لاكبر قدر من الناس، واذا انعدم الوارث من جميع الدرجات انتقلت الاموال الى بيت مال المسلمين.

﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون ممّا قل منه او كثر نصيباً مفروضاً﴾[2].

﴿يُوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فان كُنّ نساءً فوقَ اثنتين فلهنّ ثلثا ما ترك وإن كانت واحدةً فلها النِصف ولِابويه لكلٍ واحدٍ منهما السُدسُ مما ترك إن كان له ولدٌ. . . ولكم نصفُ ما ترك ازواجكم إن لم يكن لهنّ ولدٌ فان كان لهنّ ولدٌ فلكم الرّبعُ. .﴾[3].

١٣ ـ حثّت على الصدقة ووعدت عليها الاجر والثواب.

﴿. . وما تنفقوا من خير فلإنفسكم وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يُوَّف اليكم وانتم لا تظلمون. . الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أُجرهم عندَ ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[4].

﴿إنْ تبدوا الصدقات فنعمّا هي وإنْ تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفّر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾[5].

١٤ ـ حرّمت الغش، في العقود والمعاملات وغيرهما.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته التي خطبها بالمدينة قبل **وفاته:**

«. . ومن غشّ مسلماً في بيع او شراء فليس منا ويحشر مع اليهود يوم

---

(١) وسائل ١٢/٦٤.
(٢) سورة النساء الآية ٧.
(٣) سورة النساء الآيتان ١١ و١٢.
(٤) سورة البقرة الآيتان ٢٧٢ و ٢٧٤.
(٥) سورة البقرة الآية ٢٧١.

القيامة لانه من غشّ الناس فليس بمسلم»[1].

«.. ومن بات وفي قلبه غشّ لاخيه المسلم بات في سخط الله تعالى واصبح كذلك وهو في سخط الله حتى يتوب ويرجع، وان مات كذلك مات على غير دين الاسلام، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الا ومن غش مسلماً فليس منا، قالها ثلاثاً»[2].

١٥ ـ حرّمت الاحتكار من قبل التّجار وغيرهم ولعنتهم.

«عن ابي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجالب مرزوق والمحتكر ملعون»[3].

«وعن ورّام بن أبي فراس في كتابه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن جبرئيل عليه السلام قال: اطلعت في النار فرأيت وادياً في جهنّم يغلي، فقلت: يا مالك لمن هذا؟ فقال لثلاثة: المحتكرين والمدمنين الخمر والقوادين»[4].

«وعن امير المؤمنين عليه السلام في كتابه الى مالك الاشتر واليه على مصر قال فيه: فامنع من الاحتكار فان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منع منه، وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل واسعاً لا يجحف بالفريقين من البايع والمبتاع. فمن قارف حكرة بعد نهيك ايّاه فنكّل وعاقب في غير إسراف»[5].

١٦ ـ حثّت علىٰ التجّارة الحّرة الشريفة التي فيها للانسان عزّ ووقار:

«عن المعلّىٰ بن خنيس قال: رآني ابو عبد الله عليه السلام وقد تأخرت عن السوق فقال: اغدُ إلى عزّك»[6].

«عن محمد الزعفراني عن أبي عبد الله عليه السلام قال من طلب التجارة

---

(١) ثواب الاعمال وعقاب الاعمال/ص ٣٣٤.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الوسائل ١٢/ص ٣١٣.

(٤) نفس المصدر السابق. ١٢/٣١٤.

(٥) الوسائل ١٢/ص ٣١٥.

(٦) وسائل ١٢/ص ٣.

استغنى عن الناس، قلت وان كان معيلاً؟ قال: وان كان معيلاً، إن تسعة اعشار الرزق في التجارة»[1].

١٧ ـ حرّمت الاستغلال بكل صوره وناشدت الشريعة ان يكون التعامل على رضي الطرفين ونهت عن ظلم الاجير.

قال تعالىٰ: ﴿ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين﴾[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «.. ومن ظلم أجيراً أجره أحبط الله عمله وحرّم عليه ريح الجنّة، وريحها يوجد من مسيرة خمسمائة عام»[3].

«عن هشام بن الحكم عن ابي عبد الله عليه السلام في الحمّال والأجير قال: لا يجّف عرقه حتىٰ تعطيه أجرته»[4].

«وعن مسعدة بن صدقه، عن ابي عبد الله عليه السلام قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يستعملنّ أجيراً حتى يعلمه ما أجره. . .»[5].

١٨ ـ منعت الشريعة من التعدي على حقوق الناس والاضرار بهم.

«عن زراره، عن ابي جعفر عليه السلام قال: ان سمرة بن جندب كان له عذق في حائط لرجل من الانصار وكان منزل الانصاري بباب البستان وكان يمرّ به الىٰ نخلته ولا يستأذن فكلّمه الانصاري أن يستأذن اذا جاء، فأبىٰ سمرة، فلما تأبىٰ جاء الانصاري الى رسول الله صلى الله عليه وآله فشكا اليه وخبّره الخبر فارسل اليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخبّره بقول الانصاري وما شكا وقال: إن اردت الدخول فاستأذن فأبى فلما ساومه حتى بلغ به من الثمن ما شاء الله فأبى أن يبيع فقال: لك بها عذق يمدّ لك في الجنّة فأبى أن يقبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للانصاري اذهب فاقلعها وارم بها اليه فإنه لا ضرر ولا ضرار»[6].

---

(١) مصدر سابق ١٢/ص ٤.

(٢) سورة هود الآية ٨٥.

(٣) عقاب الاعمال/ص ٣٣١.

(٤) الكافي ٥/ص ٢٨٩.

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) الكافي ٥/ص ٢٩٣.

١٩ ـ منحت الشريعة حق الانتفاع بأراضي الموات لمن يحييها فيزرعها.

«عن زرارة عن ابي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من أحيا مواتاً فهو له»[١].

«وعن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: أيما قوم أحيوا شيئاً من الارض وعمروها فهم احق بها وهي لهم»[٢].

٢٠ ـ حثّت الشريعة على المنافسة والتسابق في الاعمال وطلب الرزق الحلال.

قوله تعالى: ﴿**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله...**﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿**ليبلوكم ايكم احسن عملاً...**﴾[٥].

٢١ ـ امرت الشريعة بالحد الوسط في كل الامور اي لا إفراط ولا تفريط سواء في الانفاق او الاكتساب.

قوله تعالى: ﴿**وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة**﴾[٦].

وقال تعالى: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً**﴾[٧].

٢٢ ـ خوّلت الشريعة الحاكم أو ولي الامر حق فرض الضرائب المالية على بعض الموارد التي يراها الولي الشرعي انها لصالح العام، وهذا ما فعله امير المؤمنين عليه السلام عندما فرض الزكاة على الخيل.

٢٣ ـ اكدّت الشريعة على الانفاق من قبل المتموّلين لسد حاجيات الفقراء

---

(١) الكافي ٥/ص ٢٧٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سورة المطففين الآية ٢٦.

(٤) سورة التوبة الآية ١٠٥.

(٥) سورة تبارك الآيات ١ و٢.

(٦) سورة البقرة الآية ١٩٥.

(٧) سورة الاسراء الآية ٢٩.

والمعوزين وجعلت الانفاق عملية تجارية مربحة للمنفق فكأنما يشتري الحسنات باموالة في دار الدنيا ليدّخرها الى يوم فاقته في الحياة الاخروية فالشريعة تنظر الى هذا الانفاق من زاويتين مهمّتين الاولىٰ لا تحبّذ تكديس الاموال في يد واحدة محتكره قبالها عشرات من المعوزين وبهذا الانفاق تتلاشى الطبقية أو تخف حدّتها علىٰ اقل تقدير.

والزاوية الثانية، ينشأ التكافل الاجتماعي بين الافراد وتسود المجتمع روح الأخوّة والمحبّة والرأفة والانسانية، وبها تختفي روح الانانية والحقد والحسد والسخرية. وبالنتيجة فالانفاق في الحقيقة هو نماء....

هذه جملة من المبادىء الاسلامية في الاقتصاد والتي تعدّ بحق من الاسس المهمة للمذهب الاقتصادي الاسلامي.

مسؤولية الدولة في المذهب الاسلامي:

مسؤوليات الدولة والحاكم الشرعي كثيرة جداً وقد حدّدت الشريعة الاسلامية تلك المسؤوليات ونحن ليس بصددها علىٰ التفصيل بل من الزاوية الاقتصادية فحسب، فالدولة الاسلامية تتخذ علىٰ عاتقها جملة من المسؤوليات تجاه الوضع الاقتصادي نستطيع ان نلخصها بما يلي:

١ ـ مسؤولية الضمان الاجتماعي.

٢ ـ مسؤولية التوازن الاجتماعي.

٣ ـ مسؤولية رعاية القطّاع العام واستثماره حتى الدرجة القصوى.

٤ ـ مسؤولية الاشراف علىٰ مجمل حركة الانتاج.

٥ ـ مسؤولية الحفاظ علىٰ القيم التبادلية وذلك بتحديد الاسعار بالشكل المناسب كحل اوّلي للحدّ من التلاعب في كمية العرض او الطلب.

٦ ـ مسؤولية منح التسهيلات لارباب المشاريع لدفع حركة الانتاج الىٰ الزيادة في الكم والكيف.

وهناك مسؤوليات اخرىٰ تتفرع مما تقدّم.

علاج تراكم الثروات:

وضع النظام الاسلامي قواعد واسس للحدّ من تراكم الثروة في يد البعض وافتقار آخرين لها، وحرمانهم من حق التمتع بطيّبات الحياة ولو بالحد الوسط، وللقضاء علىٰ هذا التضخّم في جانب والفقر في الجانب الآخر، اتخذ الاسلام طريقين: للعلاج:

١ ـ الطريق الوقائي: اي المنع الذي يمارسه النظام تجاه افراده من التكسب بالطرق المحرّمة مثل الربا، الاحتكار، الغش، الميسر، البخس في الكيل والوزن، والسرقة، والرشوة، والتكسّب بالقود، والرهان والرقص والغناء، وبيع المسوخ وغير ذلك من الامور التي حظرها الشارع المقدس.

٢ ـ الطريق العلاجي: يتمثل هذا الطريق بجعل الضرائب المالية الثابتة والمتحركة. ونقصد بالثابتة كالزكاة والخمس والميراث والخراج. والمتحركة كالصدقة والانفاق في سبيله، وكل مظاهر الصرف التي حبّذها الشارع لإقامة منافع أو مشاريع يعود بنفعها الكلي الىٰ عامة المجتمع.

المصـادر

القرآن الكريم
الاحتجاج ـ أحمد بن علي الطرابلسي من علماء القرن السادس، مؤسسة الأعلمي ط ٢، بيروت، ١٩٨٩.
الارقام التوجيهية، ط موسكو
اسباب النزول، السيوطي، جلال الدين
اساس الاقتصاد ـ أبو الأعلى المودودي
اوائل المقالات ـ الشيخ المفيـد ط قم
بحار الأنوار ـ الشيخ المجلسي ط بيروت مؤسسة الوفاء
البيان الشيوعي ـ كارل ماركس وفردريك انجلز
تصحيح الاعتقاد، او شرح عقائد الصدوق ـ الشيخ المفيد طبع مع اوائل المقالات في مجلد واحد، قم
تفسير البرهان ـ هاشم البحراني، ط ٢ طهران
تفسير الصافي ـ المولى محسن الفيض الكاشـاني ت ١٠٩١، مؤسسة الاعلمي بيروت،
تفسير العياشي ـ محمد بن مسعود بن عياش من علماء القرن الثالث الهجرة
تفسير اللوامع
تفسير مجمع البيان ـ علي بن الحسن الطبريون، بيروت
تفسير الميزان محمد حسين الطباطبائي، بيروت، مؤسسة الأعلمي
التكامل في الاسلام ـ محمد امين المدرس بدار العلوم العالية، بغداد

تنزيه الانبياء ـ الشريف المرتضى علم الهدى
ثواب الاعمال وعقاب الاعمال ـ الشيخ الصدوق ت ٣٨١
الخصال ـ الشيخ الصدوق، محمد بن علي ت ٣٨١ مؤسسة الاعلمي بيروت
الـدّر المنثور ـ جلال الدين السيوطي
دلائل الصدق ـ الشيخ محمد حسن المظفر ط مكتبة النجاح طهران.
شرح التجريد ـ العلامة الحلي ـ قم
قانون العقوبات البغدادي المواقت، بغداد
عقائد الأمامية، محمد رضا المظفر، دار الزهراء بيروت
علل الشرائع ـ الشيخ الصدوق، دار احياء التراث العربي
غرر الحكم ودرر الكلم ـ الامدي، ترجمة محمد علي الانصاري
الكافي ـ محمد بن يعقوب الكليني، م الاخوند ـ طهران
لسان العرب ـ ابن منظور ط ١٤٠٥ نشر ادب الحوزة، قم
ماضي النجف وحاضرها، جعفر محبوبة، دار الأضواء بيروت ط ١٩٨٦/٢
مجلة المختار ـ كانون الثاني ١٩٥٦
مجمع البحرين ـ فخر الدين الطريحي ت ١٠٨٥ تحقيق احمد الحسيني، المكتبة المرتضوية
الملل والنحل ـ الشهر ستاني، عمر بن عبد الكريم ت ٥٤٨، قم
مناقب ابن المغازلي، المطبعة الاسلامية، طهران
مهمات منظمات الشباب ـ لينين، ط موسكو
النظام الشيوعي ـ ماهر نسيم
نهج البلاغة ـ الامام امير المؤمنين (عليه السلام)، ط بيروت تحقيق صبحي الصالح ط ١٩٨٢
نهج الحق ـ العلامة الحلي، علق عليه الشيخ فرج الله الحسيني دار الكتاب اللبناني
وسائل الشيعة ـ الحر العاملي ـ ط بيروت
ينابيع المودّة ـ القندوزي الحنفي، مؤسسة الأعلمي بيروت.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
من المبادىء الاسلامية في الاقتصاد	١٢٢
مسؤولية الدولة في المذهب الاسلامي	١٢٩
علاج تراكم الثروات	١٢٩
المصادر	١٣١
الفهرس	١٣٣

دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان ص. ب: ١٤/٥٤٧٩